الأعلام من الأدباء والشعراء



ابن خفاجة

شاعر شرق الأندلس

٤٥٠ - ٥٣٣هـ

إعداد

د. حسن محمد نور الدين

أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

ابن خفاجة

شاعر شرق الأندلس

٤٥٠ - ٥٣٣ هـ

إعداد
د. حسن محمد نور الدين
أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

المقدمة

بعد أن تصفحت ديوان أبي إسحاق إبراهيم بن خفاجة، شدّتني رغبة جامحة إلى إعداد دراسة تبحث في أغراض شعره، خصوصاً وأن مثل هذه الدراسة غير موضوعة حتى الآن، وأن المكتبة العربية خالية من أمثالها. وصاحب الديوان أهل للبحث والدراسة.

فالجمالية التي تلفّ شعر ابن خفاجة. والرّنة الموسيقية المتحركة في ثنايا الأبيات وخلل القصائد، كلها ساهمت في عملية الدفع إلى التأليف والكتابة عن ابن خفاجة وشعره.

والكتابة والتأليف في الشعراء أو الأدباء، صنعة قديمة العهد غير أنها تختلف من كاتب لآخر، فنحن لا نترجم للشاعر ترجمة تجعلنا نغوص في خفايا أسراره الذاتية، لنتبين جزئيات حياته التي قد لا تفيد على الصعيد العلمي والثقافي.

لكننا نغوص في خبايا شعر الشاعر وأدبه، لأن الجمال الأدبي هو غايتنا الأولى والتجديد الفكري وسيلتنا، والاغناء الفكري جادتنا ليس إلا.

ومع ذلك فإننا نعرّج على جوانب حياة الشاعر لنعرّف به

تعريفاً غير مستفيض. من غير أن ننسى العصر والبيئة التي عاشهما الشاعر طيلة حياته، خصوصاً تلك التي انتجت شعره وأبدعته.

عن كل ذلك. كان لا بد أن نكتب ونبحث ونؤلف بأسلوب السهل الممتنع البعيد عن جفاف التعقيد وعقم التكلّف.

ودراسة أية شخصية وإنتاجها، شعراً أو نثراً، لا يمكن اكتناهها بالانزواء في زاوية الديوان أو المخطوط أو المؤلف فحسب، وإنما نجاح المحاولة يتوقف على نجاح الباحث في تأمين المصادر والحصول على المراجع التي تكتنز أخبار مبحوثه. من هنا كانت الحاجة إلى جملة من الكتب باعتبارها خزان الاخبار عن صاحبنا ابن خفاجة. فحصلنا على غير مصدر ومرجع وأفدنا منه في جوامع عديدة من جوانب شخصية البحث، كنفح الطيب للمقري، وبغية الملتمس في رجال الأندلس للضبي. وغيرهما إلى جانب الديوان المطبوع في دار صادر في بيروت.

من هذه المصادر والمراجع استقينا أخبار ابن خفاجة، وعملنا على تنظيمها وتأليفها بموضوعية علمية معتمدين المخطط الآتي:

أولاً: مقدمة للبحث تنقلنا إلى أجوائه الداخلية.

ثانياً: زمن الشاعر: حيث تعرضنا إلى الأوضاع السياسية والفكرية والأدبية واللغوية.

ثالثاً: الأغراض الشعرية: وهي متعددة، قدّمنا لها بدراسة فنية تناولت الأوزان، ورصد البحور التي نظم عليها الشاعر، كما بينت القوافي والأنواع التي اعتمدها الشاعر في نظمه، فضلاً عن استقصاء الروي التي ارتبطت بها قصائده وأبياته. ذاكرين بالأرقام عدد أبيات الديوان وعدد أبيات كل بحر وأنواع القوافي والروي مشيرين إلى النسبة المئوية لكل منها.

وهكذا أنجز هذا البحث، وظهر بحلته المتواضعة، لعله يساهم في دفع عجلة الثقافة العربية ويساهم في إغناء تراثنا الأدبي.

الأول من رمضان ١٤٠٩/الموافق ٦ نيسان ١٩٨٩

زمن الشاعر

في بلاد الأندلس نشأ ونما ابن خفاجة، والأندلس اسم أطلقه العرب على البلاد التي افتتحوها في شبه جزيرة ايبيرية، وتم ذلك الفتح في أوائل القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، على يد موسى بن نصير[1] والي المغرب وطارق بن زياد[2].

وتعاقب على الحكم في تلك البلاد سلالات مختلفة منها الأمويون (١٣٨/٧٥٥ ـ ٤٢٢/١٠٣٠) وملوك الطوائف (٤٠٣/١٠١٢ ـ ٥٦٣/١١٤١) وبنو الأحمر (٦٢٩/١٢٣١ ـ ٨٩٧/١٤٩٢) وانتهى الحكم العربي في

---

(١) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء، أبو عبد الرحمن: فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى في الحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية، نشأ موسى في دمشق وولي غزو البحر لمعاوية فغزا قبرص وبنى بها حصوناً، وخدم بني مروان ونبه شأنه. ولد سنة ١٩/٦٤٠ وتوفي سنة ٩٧/٧١٥. كان شجاعاً عاقلاً كريماً تقياً، لم يهزم له جيش قط.

(٢) هو طارق بن زياد الليثي بالولاء، فاتح الأندلس. أصله من البربر، أسلم على يد موسى بن نصير فكان من أشد رجاله، ولي طنجة سنة ٨٩/٧٠٧، فأقام فيها إلى أوائل سنة ٩٢/٧١٠.
ولد سنة ٥٠/٦٧٠ وتوفي سنة ١٠٢/٧٢٠.

الأندلس بسقوط غرناطة قاعدة بني الأحمر في حوزة فردينان الثاني سنة ١٤٩٢/٨٩٧.

وكانت الأندلس من أنضر البقاع الإسلامية، والحياة الاقتصادية فيها مزدهرة، وكانت حياتها الاجتماعية مزيجاً من حياة الأندلسيين الأصليين وحياة المشرقيين، يشيع فيها الترف واللهو والغناء.

وكان هم العرب في بلاد الأندلس أن يضاهوا العباسيين في الشرق، وان ينافسوهم في شتى مناحي الحياة، فحفلت البلاد بمعاهد العلم، وكانت العواصم الكبرى من مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة مراكز الاشعاع العقلي تعج بالكتاب والشعراء.

في مرحلة ملوك الطوائف أو في قسم منها وهو آخر العصور العباسية الذي بدأ بدخول السلاجقة بغداد وينتهي بدخول بغداد في حوزة المغول سنة ١٢٥٨/٦٥٦ على يد هولاكو المغولي، وانتقال الخلافة العباسية إلى مصر. وتحديداً في أيام دولة المرابطين عاش ابن خفاجة، فمن هم المرابطون. وما مميزات المجتمع في أيامهم؟

أولاً: المرابطون: في قبيلة لمتونة إحدى قبائل صنهاجة ظهر يحيى بن إبراهيم الجدالي وانتهى إلى مقام الزعامة بعد أن دبت الفوضى في جسم المملكة القبلية القديمة.

ويحيى هذا، حج إلى مكة فاستشعر حاجة قومه إلى الاصلاح الديني، وعمل على تحقيقه. بدءاً من رحلته إلى الحج. حيث التقى في اثناء عودته في نفيس[١] من أعمال مراكش فقيهاً عالماً اسمه عبد الله بن يس الجزولي[٢] الذي أعجب بـه فصحبه ليعلم قومه أحكام الدين. وجمع لذلك فئة من اتباعه المخلصين واعتزل بهم بالسنغال، وابتنى لهم رباطاً يرابطون فيه للجهاد ضد الكفار، ويفرغون فيه للعبادة، وكان يهدف إلى محاربة مساوىء الحكم كإرهاق الرعية بالضرائب الفاحشة.

كثر أتباع يحيى، حتى صار في ميسوره أن يوجههم للنضال ضد الأمراء المستبدين، وأوكل قيادة المرابطين إلى يحيى بن عمر[٣]. ولما توفي يحيى سنة ٤٤٧/١٠٥٥ خلفه أخوه

---

(١) ذكر ياقوت في معجم البلدان نفيس بفتح النون وكسر الفاء: قصر نفيس: على ميلين من المدينة، ينسب إلى نفيس بن محمد من موالي الأنصار.

(٢) هو عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي المصمودي، الزعيم الأول للمرابطين، وجامع شملهم، وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم. كان من طلبة العلم في دار انشئت بالسوس وسميت «دار المرابطين». كان عبد الله صلة بين المغرب الأقصى وجزيرة الأندلس حيث قضى فيها ٧ سنوات يتطلب المعارف فنضجه الفكري كان نتيجة ثقافة عالية في الأندلس. ولد ولد في سنة لم يحددها المؤرخون، وتوفي سنة ٤٥١/١٠٥٩.

(٣) هو يحيى بن عمر بن تكلاكين اللمتوني. أبو زكريا: مؤسس دولة «المرابطين» في المغرب الأقصى. كان من رؤساء «لمتونة» في الصحراء، =

أبو بكر وابن عمه يوسف بن تاشفين[1]، وما لبث هذان الزعيمان أن افترقا حتى إذا وافت المنية أحدهما أبا بكر تمت للآخر زعامة المرابطين العليا من شاطىء افريقيا إلى السنغال. وأخذ يجاهد في سبيل دولته التي قامت على قاعدة الجهاد ما جعل تكاليف الحروب أمراً لا تفي به إلا كثرة الدخل.

الحالة السياسية:

كان أمراء المرابطين في الأندلس يختلفون عن أمير المسلمين في تعففهم عن أموال الناس ولو أنهم انغمسوا بعد فترة في التزيد من الثروة والمكاسب، لذلك لم يحس الرجل العادي بتحسن يذكر في مستوى دخله، والذين أحسوا بذلك هم الفقهاء الذين شاركوا في السلطة.

= وحج مع جماعة من قومه، كان رئيسهم زعيم صنهاجة في ذلك الحين «يحيى بن إبراهيم الكدالي» ومروا بقيروان في عودتهم. فلقوا شيخ المالكية فيها فطلب منه يحيى انتداب من يصحبهم ويفقههم ويرجعون إليه في قضايا دينهم. مات يحيى سنة ٤٤٧/١٠٥٥ وسنة مولده غير محددة.

(١) هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم المصالي الصنهاجي اللمتوني الحميري، أبو يعقوب أمير المسلمين وملك الملثمين: سلطان المغرب الأقصى، وباني مدينة مراكش. وأول من دعي بأمير المسلمين. ولد في صحراء المغرب سنة ٤١٠/١٠١٩، وولاه ابن عمه أبو بكر بن عمر اللمتوني إمارة البربر، وبايعه أشياخ المرابطين، وجال جولة كبيرة في المغرب فقوي أمره واستولى على مدينة فاس، وغزا الأندلس فصالحه ملوكها على الطاعة له. توفي سنة ١١٠٦/٥٠٠.

وتجدر الإشارة إلى أن قدوم المرابطين إلى السلطة خلق تنافساً شديداً على الوظائف، كما خلق شيئاً من افتئات طبقة المجندين (الملثمين) على مصالح الرعية، حتى وصل الأمر إلى استحالة وجود رئيس عادل يسعى إلى الخير المرتبط بالناموس.

وتبرز في هذا العصر طبقة من الموظفين كصاحب المدينة وصاحب المواريث والقاضي والمحتسب الذين لا يجوز أن يكونوا إلا أندلسيين، فإنهم أعرف بأمور الناس وطبقاتهم، وأعدل في الحكم وأحسن سيرة من غيرهم، وانفع للسلطان وأوثق، وهؤلاء كانوا من المرابطين الذين تمتع واحدهم في البيئة الاندلسية بنفوذ مميز.

ويبدو أن بعض الوظائف كانت الضرورة تدعو إلى الازدواج فيها، فأعوان القاضي مثلاً في اشبيلية يجب أن يكونوا عشرة. أربعة منهم سودان برابر لحقوق المرابطين وغيرهم من الملثمين، والباقي أندلسيون، فهم أوثق وأخوف، والملثم يجب أن يكون صنهاجياً أو لمتونياً أو لمطياً، أما من عداهم من الحشم والعبيد فإنهم حين يلثمون يهيبون على الناس، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة بسبب اللثام وهماً، والسبب في ذلك أن اللثام ـ وهو شارة المرابطين ـ يؤكد على الناس إكرامهم، فإذا تلثم عبيدهم، ظنهم الناس من المرابطين أنفسهم فيسعون إلى برّهم، مع أنهم كانوا يستغلون اللثام في ضروب الإساءة والتعدي، علماً أن كثيراً من ضروب الظلم الواقعة على

الناس كانت توسم باسم السلطان، فالمكوس[1] مثلاً، كانت تفرض على السلع ولا يقدر الناس أن يحتجوا لأن ذلك لمنفعة السلطان مع العلم أن السلطان لا يدعو إلى ذلك إطلاقاً.

الحالة العمرانية والاجتماعية:

تحدثنا الأخبار عن المدن الأندلسية، فكانت ذات أسوار تقفل ليلاً، ولأبوابها بوابون يدفع الناس لهم مبلغاً من المال عند جوازهم بها، ذلك ما يحمل المؤرخين على وصمهم بالجشع والشطط والمخرقة، وهذا الوصف لا يسقط فكرة أن يكون لهم أجر تقرره الدولة ولا يعطيهم الناس شيئاً، كما أن للمدينة حراساً في داخلها، يطوفون ليلاً، أشداء يروعون الناس، ويدبون الذعر في نفوس الخليقة.

هذا على أبواب المدن وفي داخلها. أما في خارج المدن والأبواب. فهناك فئات تبيع الجلود وغيرها من المبيعات المسروقة بمعظمها.

وإذا التقت المدن الأندلسية في كثير من صور الحياة الاجتماعية، إلا أن بينها فروقاً واضحة، فمدينة نهرية مثل اشبيلية، يتصل أكثر ضروب نشاطها بالنهر، ففي جانب منه

(١) جمع مفرده المكس وهو الجباية، دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية، والماكس العشار ويقال للعشار: صاحب مكس.

ترسو السفن، وعلى النهر معدون ينقلون الناس بين الضفتين، ويشحنون البضائع، ومن هذا النهر يستسقي السقاؤون من سقاية خاصة، لذا كانت النساء تمنع من أن يغسلن من موضع السقاية. أما قرطبة فتتميز ـ مثلاً ـ بأن أهلها لا يقدرون الضريبة على الثمار، وإذاً كان تقدير الضريبة مفروضاً في بعض المدن برخصة من الفقهاء، فلأن هؤلاء رخصوا فيه تملقاً من رؤسائهم. وحال غرناطة يختلف عن المدينتين، فهي تتميز باعتمادها الكبير على فصل العصير حين يترك أهلها بيوتهم ويخرجون حاملين معهم الأثاث والعتاد والمآكل والسلاح ليردوا به العدوان.

وللزراعة أهمية بالغة في حياة الأندلسيين، فمن الفلاحة العيش والصلاح، وفي الحنطة ومنها تذهب النفوس وتملك المدائن. وببطالتها تفسد الأحوال وينحلُّ النظام، وإذا كان التقدير الواضح للزراعة بعامة فإن للحنطة موقعها المميز عند الأندلسيين باعتبارها عصباً رئيساً في معيشة السكان الذين اصيبوا غير مرة بالقحل نتيجة التخريب الذي فرضته الحروب خصوصاً في اشبيلية حين مرت سنة عرفت باسم «سنة الجوع الأكبر» التي اجتاحت اشبيلية سنة ١٠٥٦/٤٤٨ ومن شهد هذه الحادثة قال: كان الناس يدفنون الثلاثة والأربعة في قبر واحد، لكثرة الوفيات من الجوع. ففسدت أديان الناس، وشاعت الفوضى وانتشر المجون، فكان شاربو الخمر يذهبون

إلى المقابر في اشبيلية أيام العيد ويجلسون فيها لاعتراض النساء، والدارات أصبح مواضع أوكار ولا سيما في فصل الصيف ـ وقت القيلولة ـ فكان لا بد من تفتيشها، كما كثرت بل تنوعت ضروب الغش في المصنوعات، وتعددت صنوف الحيل ونقص الذمة واستفحلت الرشوة والربا، كلها مثالب عمت وانتشرت فلا بد للقضاء عليها من نبي أو قاضٍ مسؤول.

الحالة الفكرية والأدبية:

مهما تغيرت أشكال النظم السياسية لأية دولة، فإن الحياة الأدبية وعلوم اللغة تبقى لكنها تتأثر بما يحيط بالعالم من تبدلات في الوضع السياسي. وهذه الحال تنطبق بلا شك على المرحلة التي عاشها الشاعر ابن خفاجة.

فالشعر الأندلسي تطور بدافع العوامل المختلفة التي عملت فيه من شعب يتجدد شيئاً فشيئاً، وبيئة جديدة، وتغيرت حاله عما كانت عليه من قبل، فكان في بادىء الأمر ينزع منزع التقليد لشعر العرب المعهود، وظهر ذلك التقليد في مخلفات ابن عبد ربه[1] (٢٤٦/ ٨٦٠ ـ ٣٢٨/ ٩٤٠)، وابن

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه، ابن حبيب بن حدير بن سالم، أبو عمر: الأديب الامام صاحب العقد الفريد. من أهل قرطبة، كان جده الأعلى (سالم) مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية، وكان ابن عبد ربه شاعراً ـ

هانيء[1] (٣٢٦/٩٣٨ - ٣٦٢/٩٧٣) وابن شهيد[2] (٣٨٢/٩٩٢ - ٤٢٦/١٠٣٤) وغيرهم من شعراء تلك الحقبة.

وبدأت حركة التحرر في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، فأخذ الشعراء يمثلون بيئتهم الجديدة ونزعات نفوسهم، وقد بلغت هذه الحركة أوجها حيث تكاثر الشعراء لكنهم في مصر ظلوا في هذا العصر أقل منهم في أي عصر قبله وفيهم كان شعراء فطاحل، ومن شعراء هذه الحقبة ابن زيدون[3] (٣٩٤/١٠٠٣ - ٤٦٣/١٠٧١) وابن حيدس

= مذكوراً فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها، له شعر كثير، ومن أشهر كتبه كتابه الذي سماه العقد وأضاف النساخ المتأخرون لفظ الفريد ولد سنة (٢٤٦/٨٦٠ وتوفي سنة ٣٢٨/٩٤٠).

(١) هو محمد بن هانيء بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي، أبو القاسم، يتصل نسبه بالمهلب بن أبي صفرة، أشعر المغاربة على الاطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق، وكانا متعاصرين بأشبيلية، وحظي عند صاحبها واتهمه أهلها بمذهب الفلاسفة، في شعره نزعة اسماعيلية بارزة. ولد سنة (٣٢٦/٩٣٨ وتوفي سنة ٣٦٢/٩٧٣).

(٢) هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد، من بني الوضاح. من أشجع، من قيس عيلان أبو عامر الأشجعي: وزير من كبار الأندلسيين أدباً وعلماً مولده سنة ٣٨٢/٩٩٢، ووفاته سنة ٤٢٦/١٠٣٥ ولد وتوفي في قرطبة. له شعر جيد يهزل فيه ويجدّ.

(٣) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، المخزومي الأندلسي، أبو الوليد: وزير كاتب شاعر. من أهل قرطبة، انقطع إلى ابن جهور (من =

(٤٤٧/١٠٥٥ ـ ٥٢٧/١١٣٢) وابـن خـفـاجـة (٤٥٠/ ١٠٥٨ ـ ٥٣٣/١١٣٨).

والشعر الأندلسي شبيه جداً بالشعر العباسي. فقد ظهر فيه التجديد في الغزل والخمريات، ووصف الطبيعة والعمران، وبقي التقليد مسيطراً على الأبواب الأخرى، فأغراضه في هذه المرحلة نفسها عند العرب من مدح ورثاء وهجاء وغزل وما إلى ذلك. غير أن القرائح انصرفت نوعاً ما إلى الفقه والتصوف وأصبح الشاعر لا ينظم رغبة في الجائزة أو تنافساً في التقدم لدى ولاة الأمر.

والأندلسيون توسعوا في الوصف، ورثاء الممالك البائدة، والشكوى والاستعطاف. والاستنجاد، وفي هذه الأغراض جميعها نظم ابن خفاجة وزاد عليها تقليده لابن الرومي في ذم الورد، والمعري في لزوم ما لا يلزم، كما أن ابن خفاجة طرق

= ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس، فأعجبوا به، واتهمه ابن جهور بالميل إلى المعتضد بن عباد، فحبسه. ولد سنة ٣٩٤/١٠٠٤ وتوفي سنة ٤٦٣/١٠٧١.

(١) هو عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الازدي الصقلي، أبو محمد: شاعر مبدع، ولد وتعلم في جزيرة صقلية ولم يحدد تاريخ المولد، ورحل إلى الأندلس سنة ٤٧١/١٠٧٨، فمدح المعتمد بن عباد، فأجزل له العطايا، انتقل إلى افريقيا سنة ٤٨٤/١٠٩١ فمدح صاحبها يحيى بن تميم الصنهاجي، ثم ابنه عليا، فابنه الحسن سنة ٥١٦/١١٢٢، توفي بجزيرة ميورقة سنة ٥٢٧/١١٣٣ عن نحو ٨٠ عاماً.

باباً جديداً وهو باب الاخوانيات حيث راسل أصدقاء له وداعبهم في أكثر من مجال.

أما معاني الأندلسيين، فهي دون معاني المشارقة عمقاً. وخيالهم أكثر أصباغاً من خيال المشارقة، يتجلى ذلك في صور براقة نابضة بالحياة.

ولغة الأندلسيين دون لغة المشارقة متانة، فهي سهلة وغير محكمة البناء في مجملها.

وأوزان الأندلسيين الشعرية موسيقية في أكثرها، وقد خرجت في قسم منها عما عهدناه عند العرب، وبدا ذلك في موشحاتهم.

فالموشحات فن من الشعر استنبط بالاندلس، وخولفت فيه القواعد المرعبة في أوزان الشعر وقافيته ورويه، وقد شملت جميع أغراض الشعر العربي، وهي تمتاز بموسيقاها المطربة أحياناً، ومعانيها اللطيفة وإن لم تخل من البساطة والتكرار.

والموشح في الاصطلاح قصيدة أو بعض قصيدة موضوعة للغناء، وهو يتألف من غصن أو مطلع أو مذهب ومن بيت.

فالغصن بيت أو بيتان تفتح بهما القصيدة عادة.

والبيت عدة أبيات من الشعر تأتي بعد الغصن إذا وجد وإلا كانت فاتحة الموشح.

والبيت مؤلف من سمط وقفل.

والسمط أو الدور، فهو القسم الأول من البيت، ويتألف من عدة أبيات شعرية تامة أو مجزوءة أو مشطورة، أو بعضها تام وبعضها مشطور.

أما القفل فهو القسم الثاني من البيت ومن شروطه أن يكون بعدد أبيات الغصن ووزنها ورويها، وكل ما لها من ميزات الوزن والقافية، وهو يأتي دائماً بعد السمط.

أما القفل الأخير من الموشح فيسمى الخرجة ومن شروطها عادة أن تكون عامية غير معربة إلا في المدح.

وهذا مثال من موشح لسان الدين بن الخطيب[1]:

جادك الغيث إذا الغيث هما
يا زمان الوصل في الأندلس

(١) هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله الشهير بلسان الدين ابن الخطيب: وزير مؤرخ أديب نبيل. كان أسلافه يعرفون ببني الوزير، ولد بغرناطة سنة ١٣١٣/٧١٣ ونشأ فيها، واستوزره سلطانها أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل سنة ١٣٣٢/٧٣٣ ثم ابنه الغني بالله محمد من بعده. وعظمت مكانته. وشعر بسعي حاسديه في الوشاية به، فكاتب السلطان عبد العزيز بن علي المريني، برغبته في الرحلة إليه. وترك الأندلس خلسة إلى جبل طارق ومنه إلى سبته فتلمسان سنة ١٣٧١/٧٧٣، توفي سنة ١٣٧٤/٧٧٦. له مؤلفاته تقع في نحو ستين كتاباً، من ألقابه: ذو الوزارتين وذو العمرين.

لم يكن وصلك إلا حلما
في الكرى أو خلسة المختلس
(الغصن)
إذ يقود الدهر اشتات المنى
تنقل الخطو على ما ترسم
زمراً بين فرادى وثنا
مثلما يدعو الحجيج الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا
فثغور الزهر فيه تبسم
(السمط)
وروى النعمان عن ماء السما
كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً معلما
يزدهي منه بأبهى ملبس
(القفل)

وعن ألموشحات قال ابن خلدون: «ينظمونها اسماطاً اسماطاً، وأغصاناً أغصاناً، ينسبون فيها ويمدحون، كما يفعل في القصائد، وقد استظرفها الناس وجملة الخاصة والكافة، لسهولة تناولها، وقرب طريقها، وكان المخترع لها في جزيرة الأندلس مقدّم بن معافى القبريري[1] من شعراء الأمير

(١) مقدم بن معافى الفربري شاعر معروف في أيام عبد الرحمن الناصر ومن =

عبد الله بن محمد المرواني(١)، وأخذ عنه ذلك ابن عبد ربّه صاحب العقد الفريد، ثم برع في هذا الشأن بعدهما عبّادة القزاز(٢) شاعر المعتصم بن صمادح(٣)، ثم جاءت الحلبة التي كانت في أيام الملثمين «المرابطين» فظهرت لهم البدائع».

= مدائحه في سعيد بن المنذر قصيدة ذكر من أولها أحمد بن فرج في كتابه أبياتاً وهي:

أشجيت أن طرفت حمامة وادي مياد في ناعم مياد.

تلهو وما منيت بجفوة زينب يوماً ولا بخيالها المعتاد.

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام من ملوك بني أمية في الأندلس. بويع له بقرطبة يوم وفاة أخيه المنذر سنة ٢٧٥/٨٨٠١ وكثرت الثورات في أيامه، وكان مقتصداً، كارهاً للسرف، كثير الصدقات والمبرات، ورعاً، متفنناً في العلوم، بصيراً بلغات العرب، فصيحاً، يقول الشعر ويرويه. ولد سنة ٢٢٩/٨٤٣ وتوفي سنة ٣٠٠/٩١٢. يعدّه المؤرخون من أصلح الأمويين في المغرب.

(٢) لم نعثر على اسم عبادة القزاز لكن عثرنا على عبادة بن عبد الله الانصاري أبو بكر، المعروف بابن ماء السماء، ولعلّه هو. فهذا رأس الشعراء في الدولة العامرية بالأندلس، وشاعر عصره. وهو الذي أقام عماد الموشحات وهذب ألفاظها وأوضاعها. واشتهر بها اشتهاراً غلب عليه. لم يحدد تاريخ مولده لكنه توفي سنة ٤٢٢/١٠٣٠. له كتاب في أخبار شعراء الأندلس.

(٣) هو محمد بن معن بن محمد بن صمادح أبو يحيى التجيبي الأندلسي. صاحب المرية وبجانة والصمادحية، من بلاد الأندلس، سمى نفسه معز الدولة، ثم لما تلقبت ملوك الأندلس بالألقاب السلطانية لقب نفسه «المعتصم بالله الواثق بفضل الله» وكان كريماً حليماً ممدوح السيرة، عالماً بالأدب والأخبار، شاعراً، مقرباً للأدباء وللشعراء فيه أماديح ولد سنة ٤٢٩/١٠٣٨ وتوفي سنة ٤٨٤/١٠٩١.

أما النثر الأندلسي فقد تطور باديء الأمر تطوره في الشرق العباسي، فكان في الصدر الأول من الفتح صورة للنثر الأموي في الشرق، ولم يتعدّ الخطب والرسائل القصيرة، ذلك لأن أصحابه الوافدين من الشرق ساروا في بيئتهم الجديدة على التقاليد التي ورثوها من الوطن الذي نزحوا إليه.

والانشاء نضج في هذا العصر، وتعينت له قواعد، ونبغ جماعة من المنشئين تجاوزوا في انشائهم ما وصفه أدباء العصر الثالث، وأدباء العصر الرابع قلما اقتصر واحدهم على فن واحد من فنون الأدب فكانوا يبدعون في غير مجال، وقد يكون سبب ازدهار النثر والانشاء انتشار الثقافة من جهة وتنافس الأمراء من جهة ثانية.

أما الفنون النثرية فمرجعها إلى الخطابة والترسل، والتصنيف، وقد كانت الألى وليدة الفتح والحروب، وما لبثت أن تعددت أغراضها وتسرّب إليها التنميق اللفظي، وأخيراً ضعفت قيمتها وكادت تنحصر في المواعظ الدينية.

والترسل، تطور وكان منه الديواني والأدبي، وكان الوصف غالباً على الكتابة الأدبية، واشتهر من أصحاب الترسل ابن زيدون.

أما التصنيف فقد تناول جميع العلوم، ومن أشهر المصنفين ابن عبد ربّه الأندلسي الواضع للعقد الفريد.

وقد حاول الأندلسيون مجاراة المشرق العباسي، ففاقوا كتابه في الموسيقى الشعرية، وفي الليونة واللطافة اللفظية، لكنهم لم يبلغوا درجتهم في عمق الفكرة ومتانة التعبير.

والحركة الأدبية إذ ذاك، كادت أن تكون عامة بين المثقفين، فلا نكاد نقرأ ترجمة لفقيه، أو أمير، أو متصوف، إلا نجد له شعراً، وكذلك النساء فقد كان لهن أثرهن في الأدب لما يتمتعن به من جمال حرك نفوس الأدباء للغزل والنسيب، ثم كان منهن الأديبات اللاتي ساهمن في الحركة الأدبية بما انتجنه من صنوف الأدب.

أما علوم اللغة وهي النحو والصرف والمعاني والبيان والعروض والمحاضرات والانشاء. فقد شهدت تطوزاً بارزاً في هذا العصر، حيث وضعت أهم كتب النحو والصرف والبيان، فمنها كافية ابن الحاجب. والفية ابن مالك في النحو، ومفتاح العلوم للسكاكي في البلاغة، وشافية ابن الحاجب، وتصريف الزنجاني في الصرف.

كما نضج في هذا العصر علم المقامات المعروف بمقامات الحريري، ثم نضج علم اللغة بالقواميس التي ظهرت كأساس البلاغة للزمخشري.

وسط هذا البحر من العلوم. أو في مرحلة من مراحل هذا الازدهار الأدبي والعلمي عاش الشاعر ابن خفاجة فنظم الشعر وجعله في ديوان مطبوع.

سيرته واخباره

ابن خفاجة هو أبو إسحاق، إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله الهواري الأندلسي، شاعر شرق الأندلس[١] ولد سنة ٤٥٠/١٠٥٨ وهو من أهل جزيرة شقر[٢] من أعمال بلنسية[٣].

كان ابن خفاجة مقيماً في شرقي الأندلس، نبه صيته في عصر دولة المرابطين بعد زوال دولة بني أمية والدولة العامرية.

لم يتعرض لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم على أهل

---

(١) الأندلس: بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الدال المهملة وضم اللام والسين المهملة، وهي جزيرة متصلة بالبر الطويل، والبر الطويل متصّل بالقسطنطينية العظمى، وإنما قيل للأندلس جزيرة لأن البحر محيط بها من جهاتها إلا الجهة الشمالية. وهي مثلثة الشكل، فالركن الشرقي منها متصل بجبل يسلك منه إلى فرنجة، ولولاه لاختلط البحران، وحكي أن أول من عمرها بعد الطوفان هو أندلس بن يافث بن نوح عليه السلام، فسميت باسمه.

(٢) شقَر بضم الشين المثلثة وسكون القاف والراء المهملة، وهي بليدة بين شاطبة وبلنسية ـ وإنما قيل لها جزيرة لأن الماء محيط بها.

(٣) بلنسية بفتح الباء الموحدة وفتح اللام وسكون النون وكسر السين المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها.

الأدب والشعر، كان شاعراً، كاتباً، مترسلاً، وصافاً للطبيعة التي ربته بجمالها، فعمل بجميع قواه العقلية والخيالية على التعبير عن هذا الجمال ممثلاً في الرياض والغياض والبساتين والرياحين. وقال في ذلك شعراً كثيراً.

فالطبيعة عند ابن خفاجة هي كل شيء، فقد شغف بها ومزج روحه بروحها وبادلها الشعور والاحساس، وكان يتحدث إليها كما يتحدث إلى شخص ذي حياة وحركة.

وتفرد ابن خفاجة بالوصف والتصرّف فيه، ولاسيما وصف الانهار والازهار والبساتين والرياض والرياحين، فكان أوحد الناس فيها حتى لقبّه أهل الأندلس بالجنان، أي البساتين، ولقبه الشقندي بصنوبري الأندلسي.

كان ابن خفاجة مداحاً وأكثر مدحه في أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين واعتبر شاعر غزل مع أنه لم يكثر من هذا الفن، غير أنه أدرج أبياتاً منه في ثنايا قصائده المتنوعة.

وكان أيضاً من الكتاب البلغاء، صاحب مذهب كتابي، وأسلوب أدبي يوازن بشعر أبي تمام ومذهبه، كما يشبه في نثره وكتابته ابن العميد والهمذاني، فشعره من النوع الوجداني، الابداعي، المملوء بالصور والخيالات، والأنوار والظلال، والأوصاف الدقيقة، مع تفرده بالوصف والتصرّف فيه، كان شعره رقيقاً وألفاظه أنيقة، غير أن ولوعه بالصنعة وتعمّده

الاستعارات والكنايات والتورية والجناس وغيرها من المحسنات المعنوية واللفظية جعل بعض شعره متكلفاً، وأوقع بعضه في الغموض، ومما حمل شيوخ النقد على أن يعيبوا شعره كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمَعري سابقاً.

ومع ذلك فإن ابن خفاجة كان يعدّ أديب الأندلس وشاعرها بدليل ما نعته به المقري في كتابه نفح الطيب. فهو شاعر الطبيعة الأكبر، وأديب الأندلس وشاعرها، وأديبها المشهور الذي اعترف له بالسبق الخاصة والجمهور، وهو أوحد الناس في وصف الأنهار والأزهار، والرياض والحياض والرياحين والبساتين.

كانت لابن خفاجة همة رفيعة، إذ كان يخرج من جزيرة شقر وهي كانت وطنه في أكثر الأوقات، إلى بعض تلك الجبال التي تقرب من الجزيرة وحده فكان إذا صار بين جبلين نادى بأعلى صوته يا إبراهيم تموت يعني نفسه فيجيبه الصوت ولا يزال كذلك حتى يخرّ مغشياً عليه، وكان يأتي بالجزيرة إلى المعالج الذي يبيع الفاكهة فيساومه، فإذا سمى له عدداً أو وزناً نقصه من ذلك العدد أو الوزن على شرط أنه يختار ما أحب بيده.

توفي ابن خفاجة سنة ١١٣٨/٥٣٣ لأربع بقين من شوال وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ٨٢ وفيها قال:

أي انس أو غــذاء أو بــســنــه
لابــن إحــدى وثــمانــين ســنــه[1]
فــلّص الــشــيــب بــه ذيــل أمــري
وطــال مــا جــر صــبــاه رســنــه[2]
تــارة تخــطــو بــه ســيــئــة
تسخــن العــين وأخــرى حسنــة[3].

خلّف ابن خفاجة ديواناً شعرياً غنياً، حقق وطبع في دار صادر في بيروت.

---

(١) ورد هذا البيت في الديوان كما يلي:
أي عــيش أو غــذاء أو ســنــه
لابــن إحــدى وثــمانــين ســنــة
(٢) أمري: وردت في الديوان امرىء.
(٣) تخطو: وردت في الديوان تسطو.

الأغراض الشعرية

- دراسة عامة.
- الوصف.
- المديح.
- الرثاء.
- الاخوانيات.
- الغزل.
- متفرقات.
- نماذج من شعره.

دراسة عامة:

يضم ديوان شعر ابن خفاجة ألفين وثمانمائة وستة وستين بيتاً (٢٨٦٦)، نظمها الشاعر على إثني عشر بحراً (١٢)، ووزعها على أربعة أنواع من القافية وعلى عشرين روياً.

أما البحور الشعرية فقد استأثر كل منها بعدد من الأبيات تفاوتت نسبها بين أربعة أبيات كحد أدنى وألف وواحد وخمسين بيتاً كحد أقصى، وهذا ثبت احصائي مرتب حسب الأحرف الهجائية مع النسبة المئوية لكل بحر.

البحر	عدد الأبيات	النسبة المئوية
البسيط	٩٨	٣,٤
الخفيف	١٩	٠,٦٦
مجزوء الخفيف	٤.	٠,١
الرجز	٨.	٠,٢
مجزوء الرجز	٤.	٠,١
الرمل	٩.	٠,٣
مجزوء الرمل	٨.	٠,٢
السريع	١٧٠	٥,٩

الطويل	١٠٥١	٣٦,٦
الكامل	٩٣٨	٣٢,٧
مجزوء الكامل	٠٢٣	٠,٨
مجزوء الكامل مذال	٠٠٧	٠,٢
مجزوء الكامل مرفل	٢٢	٠,٧
المتقارب	٢٦٠	٩
المديد	٦٨	٢,٣
المضارع	٢٥	٠,٨
المنسرح	٢٦	٠,٩
الوافر	١٢٦	٤,٣

أما القوافي فقد توزعت الأبيات حسب الجدول المبين الآتي:

القافية	عدد الأبيات	النسبة المئوية
متدارك (١)	١١٦٣	٤٠,٥
مترادف (٢)	٠٥٣	١,٨
متراكب (٣)	١٨٢	٦,٣
متواتر (٤)	١٤٦٨	٥١,٢

---

(١) المتدارك: حرفان متحركان بين ساكنين ٥//٥.

(٢) المترادف: اجتماع ساكنين في القافيه ٥.

(٣) المتراكب: ثلاثة أحرف متحركة بين ساكنين ٥///٥.

(٤) المتواتر: حرف متحرك بين ساكنين ٥/٥.

والحروف التي اعتمدت روياً عند ابن خفاجة تقاسمت الأبيات بنسب نظهرها في الجدول الآتي.

الروي	عدد الأبيات	النسبة المئوية
ء	١٤٤	٥
ب	٤١٨	١٤,٥
ت	٣	٠,١
ث	٨	٠,٢
ح	١٢٤	٤,٣
د	١٩٩	٦,٩
ر	٥٨٤	٢٠,٣
س	٧٦	٢,٦
ص	١٢	٠,٤
ض	٨	٠,٢
ع	١٣٧	٤,٧
ف	٤٤	١,٥
ق	٢١٦	٧,٥
ك	١٥	٠,٥
ل	٢٦٣	٩,١
م	٤٥٩	١٦
ن	٦٦	٢,٣
هـ	٧	٠,٢

و	٣	٠,١
ي	٨٠	٢,٧

تظهر هذه الجداول الإحصائية أن البحر الأكثر حضوراً في شعر ابن خفاجة كان الطويل حيث شكلت أبياته نسبة ٣٦,٦٪ من مجموع الديوان، والقافيـة الغالبـة كانت من المتواتر، وشكلت أبياتها نسبة ٥١,٢٪، والـروي الأبرز حرف الراء وأبياته بنسبة ٢٠,٣٪.

أما أغراض الديوان الشعرية فتوزعت بين الـوصف والمديح والرثاء والاخوانيات والغزل والمتفرقات، ولكل غرض نسبة في ديوان ابن خفاجة.

أولاً: الوصف

يستهل ابن خفاجة ديوانه بقطعة وصف بعنوان عبق العروس، فهو يقدمها هدية لمن يخاطبه بقوله: خذها إليك، والقطعة هذه ناعمة غنية يقلُّ نظيرها، وتحمل نفحات البهجة فكأنها رائحة العروس الخجولة يوم افتضاض بكرتها: (الكامل).

خذها إليك، وإنها لنضيرة
طرأت عليك قليلة النظراء[1]
حملت وحسبك بهجة من نفحة
عبق العروس وخجلة العذراء[2]

ويلجأ إلى الصور البيانية ليجسدها بالتوريات المتواترة ليضفي على شعره مسحة جمالية تعبق معانيها بأريج الحسن بعد أن عبق بأريج الخضرة التي تعمّ الأيكة الناضرة.

(١) النضيرة: الناعمة الجميلة. طرأت عليك: أتتك بغتة.

(٢) النفحة: الرائحة.

عبق العروس: ما يعبق منها من الرائحة الطيبة.

من كل وارسة القميص كأنما
نشأت تعل بريقة الصفراء[1]
نجمت تروق بها نجوم، حسبها
بالأيكة الخضراء، من خضراء[2]

والمقطوعة هذه حسناء تلفعت بحجاب الجمال، تسفره ليبدو وجهها الضاحك بين الضفائر الحالكة. وهو بذلك يجمع بين نقيضين: بياض الوجه وسواد الشعر:

وأتتك تسفر عن وجوه طلقة
وتنوب من لطف عن السفراء[3]

والوجه بشوش تنعم صاحبته ببحبوحة من العيش الرغيد تترجمها تلك العلامات البادية في أعلى الجبين:

بندى بها وجه الندي وربما
بسطت هناك أسرة السراء[4]

(١) وارسة القميص: حمراء القميص في صفرة.
ريقة الصفراء: كناية عن الخمرة.

(٢) نجمت: طلعت، وفي قوله النجوم: تورية ما بين نجوم السماء، ونجوم الأرض وواحدها نجم: وهو كل ما طلع من النبات على غير ساق.
الأيكة: الشجر الكثير الملتف.

(٣) الوجه الطلق: الضاحك.

(٤) الندي: النادي. أسرة: واحدها سرير: المضطجع، والأسرة أيضاً واحدها سرار: الخطوط في الجبهة. وبسط أسرة وجهه: كناية عن البشاشة وفي الكلام تورية. السراء: المسرة ورغد العيش.

فاستضحكت وجه الدجى مقطوعة
جملت جمال الغرة الغراء[١]

ويصف ابن خفاجة في مقطوعة أخرى خاتماً سماوي الفص بعنوان: مرقرق الافرند أما المرقرق فيعني به المتلألىء، والافرند: جوهر السيف، ولشدة لمعانه يبدو السيف وكأنه برق لامع يطلع في الظلام الدامس فينير ما حوله، وهذه مبالغة واضحة من الشاعر: (الكامل)

ومرقرق الافرند أبرق بهجة
ودجا فأطلع في الظلام ضياء[٢]

ولشدة لمعانه وضوئه فإنه يتحدى الشمس ولعله كسفها بعد أن جذب إليه الأنظار ليستوقف كل ناظر وناظرة:

كسفت به للشمس، حسناً، آية
تستوقف الرائي لها، حرباء[٣]

وتصل به المبالغة لأن يجعل الفصّ سماء بحالها:

---

(١) الغرة: الوجه.
الغراء: الحسنة البيضاء.
(٢) المرقرق: المتلألىء، والماء المصبوب صباً رقيقاً، الافرند: جوهر السيف
أبرق: لمع، دجا: أظلم.
(٣) الحرباء: الحرباية، يريد أن شعاع هذا الخاتم الذي كنى عنه بجوهر السيف المترقرق يستوقف الناظر إليه، كما تستوقف الشمس نظر الحرباء، فهي لا تزال ناظرة إليها.

وتختمت من فضّه بغمامة
كففٌ تكون على السماح سماء

وتحت عنوان الطيف الزائر يدرج الشاعر مقطوعة يذكر فيها الطيف ويصف الليل والنجوم بعد أن حاول الطيف عناق الظبية المقيمة في منطقة الوعساء (الكامل)

ورداء ليل بات فيه معانقي
طيف ألمّ لظبية الوعساء[1]

والشاعر يرتوي من الرضاب والشراب وكأنه يرتوي من الخمرة:

فجمعت بين رضابه وشرابه
وشربت من ريق ومن صهباء[2]

ويخلط هنا بين لون الشفق ولون الوجنة الموردة البادية في ظلام الليل.

ولثمت في ظلماء ليلة وفرة
شفقاً، هناك، لوجنة حمراء[3]

---

(١) رداء الليل: شدة ظلامه.
الوعساء: رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول، وما أندكّ وسهل من الرمل.
(٢) الرضاب: الريق، الضمير عائد للطيف.
(٣) الوفرة: الكثرة، وصف للظلماء. الشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل.

والليل مشمط الذوائب، كبرة
خرف يدب على عصا الجوزاء[1]

وينتقل إلى وصف المتنزه المزركش بالألوان الربيعية التي نمقتها الأمطار وغيّرت معالمها: (الكامل).

ومجرّ ذيل غمامة قد نمقت
وشي الربيع به، يد الأنواء[2]

ويصل إلى أن يلقي رحاله على شجرة وارفة الظلال أغصانها تحاكي السماء.

ألقيت أرحلنا، هناك، بقبة
مضروبة من سرحة غناء[3]

وأخذ يجيل الطرف تارة إلى المكان المرتفع وأخرى إلى المكان المطمئن الراكد:

وقسمت طرف العين بين رباوة
مخضرة، وقرارة زرقاء[4]

---

(١) المشمط: المختلط السواد بالبياض. الذوائب: واحدتها ذؤابة: جديلة الشعر. وذوائب الليل: سدول ظلامه. الجوزاء: برج في السماء. وعصا الجوزاء: كوكب فيه.
(٢) نمقت: زينت. الوشي: النقش بالألوان. أنواء: واحدها نوء وهو المطر.
(٣) السرحة: الشجرة الطويلة. الغناء: الكثيرة الأغصان.
(٤) الرباوة: المرتفع. القرارة: المكان المطمئن.

ومن المتنزه ينتقل إلى وصف نهر بعنوان: متعطف مثل السوار. حيث يسيل هذا النهر في باحات واسعة تشتهي النفس الورود إليه أكثر ما تشتهي الورود إلى لمى الحسناء: (الكامل).

لله نهر، سال في بطحاء
أشهى وروداً من لمى الحسناء[1]

ويشبه النهر والأزهار حوله بالمجرة تحف بها النجوم من كل جانب:

متعطف مثل السوار كأنه
والزهر يكنفه مجرّ سماء[2]

ويشبه مياه النهر بقرص مفرغ من الفضة، وما يحيط به من النباتات فأشبه بثوب أخضر فضفاض:

قد رق حتى ظنّ قُرْصاً مفرغاً
من فضة في بردة خضراء

ويتألف جمال الوصف عندما يشبه النهر بالعين التي يحيط بها الهدب من كل صوب:

وغدت تحف به الغصون كأنها
هدب يحف بمقلة زرقاء

(١) البطحاء: المسيل الواسع.
اللمى: سمرة مستحبة في الشفاه.
(٢) يكنفه: يحيط به.

وبعنوان: زنجي يسبح، يصف غلاماً أسود كالليل، يظهر في الماء وكأنه نقطة سوداء في لجة بيضاء: (السريع)

وأسود عن لنا، سابح
في لجّة، تطفح، بيضاء

ويتفنن في تشبيهه حيث يشبه الأسود بسواد العين الذي فيه إنسان العين، واستعار المقلة الزرقاء للون مياه النهر.

وإنما جال بها ناظر
في مقلة، تنظر، زرقاء

وينتقل الشاعر إلى وصف شجرة ليمون (أبو صفير) أي شجرة نارنج (من البحر المتقارب) وعليها يقف الطير الذي يفصح عن زقزقة أشبه بفصاحة الخطباء فيهتز لذلك الغصن الذي يخف للقياه مضطرباً:

ألا أفصح الطير، حتى خطب
وخفّ له الغصن، حتى اضطرب

وتتمثل الدعوة إلى الطرب بين الظلال الخفاقة وانسياب الماء الجارية في المسيل الواسع:

فمل طرباً بين ظل، هَفَا
رطيب، وماء، هناك، انثعب[1]

---

(١) هفا: خفق.
انثعب الماء: جرى في المسيل.

والدعوة تتعدى ذلك إلى الجولان في الحديقة لاتخاذها ديناً مع المدامة التي تحاكي الطرب:

وجل في الحديقة، أُختِ المنى
ودن بالمدامة، أمّ الطرب

ويخلص إلى وصف الشجرة باعتبارها أم القنا أي العود الطويل، وتعدى ذلك إلى بناتها أي الغصون التي وصفها بالأماليد أي الناعمة التي تتفرع عنها أغصان صغيرة وطرية:

وحاملة من بنات القنا
أماليد تحمل خضر العذب[1]

ويصف نار الضيافة بعنوان النار الشقراء، فهو يرى الماء جارياً على وجه الأرض يلمع كابتسامة تتبدى من خلالها لآلىء بيضاء، ومن هذه العين يشرب ويعب: (الكامل)

ومعين ماء البشر أبرق هشة
فكرعت من صفحاته في مشرب

وهذا المعين يتلألأ، وإليه يرنو الضيف حياءً خجلاً وهو يختال ويتمايل بالأثواب المفضضة والمذهبة:

---

(١) الأماليد: واحدها املود: الناعم اللين من الغصون.
العذب: أغصان الشجرة والأطراف من كل شيء.

متهلل ينـدى، حيـاء، وجـهـه
فـتراه بـين مـفـضض ومـذهـب

بالقرب من ذاك المعين حلّ الشاعر وأقام خيامه. في المكان الواقع بين جبل مرتفع يحاكي نجم السماك في السماء وبين وادٍ تغطيه الأعشاب:

خيـمـت مـنـه بـين طـود بـاذخ
نـال الـسـماك، وبـين وادٍ مـعـشـب

من ذاك المكان ترتفع شرارات نار القرى التي يوقدها العرب ليلاً ليهتدي بها المسافرون إلى مكان الضيافة. إذ لا يضيع الضيف متى رآها:

تهـفـو بـه نـار الـقـرى فـكـأنها
مـهـما عـشـا ضـيـف، لـسـان المـعـرب

ويتابع وصف الموقد المضطرم الذي يلاعب الريح لهبه وهو يداول بين الجد واللعب: (الرجز)

لاعـب، تـلـك الـريـح، ذاك الـلـهـب
فـعـاد، عـين الجـد، ذاك الـلـعـب

ويجسّده ليعطيه صورة انسان عبّ من الخمرة ما جعله ينتشي ويسير مختالاً يهز عطفيه من شدة الطرب:

سـاهَـرْتُهُ أحـسـبـه مـنـتـشـيـاً
يهـز عـطـفـيـه، هـنـاك، الـطـرب

ويصف بالتواتر وجوم البرد، والمنثور الأصفر يداعب النسيم، ليصل إلى وصف مجلس أنس: (مجزوء الكامل).

يا رب قطر جامد حلّى به
نحر الثّرى، برد تحدّر صائب

ويعطي للمنثور الأصفر صفة خيرية ليجعل منها مقطوعة بعنوان خيرية تحدث النسيم كدليل على الهمسات التي تتعالى من أعالي المنثور وكأنها تحاكيه بأصوات خفية لا يسمعها ويفهمها إلا من يعيش معها: (الطويل).

وخيرية، بين النسيم وبينها
حديث، إذا جنّ الظلام، يطيب

ولهذا المنثور أنفاس تتخذ من الليل صديقاً، وتسري عطراً ما يلبث أن يتحول إلى سرٍّ مريب:

لها نفس يسري مع الليل عاطر
كأن له سراً، هناك، يريب

وينتقل إلى مجلس أنس ليذكر الأثر الذي تركه فيه هذا المجلس حين هزّه كما يهزّ الشراب الندامى: (مجزوء الكامل).

ونديّ أنسٍ هزني
هزّ الشراب من الشباب

ويصف الليل بعكس صورته، فالليل المدلج في نظر

الشاعر وضاح الجبين وزمنه ليس ببعيد، كدليل على التفاؤل المسيطر على نفسية هذا الشاعر:

والـليـل وضـاح الجـبـين
قـصـير أذيـال الـثـيـاب

ويصف فرساً أغرَّ كريماً وآخر أشقر ليصل إلى وصف الوجنتين فيسبغ عليهما صفة الورد لاحمرار رأسيهما، كما يصف برقع الثلج لينتقل إلى وصف زورق يمخر عباب النهر، وبعد ذلك ينتقل إلى وصف مجلس لهو لينقم على هذا اليوم بعد أن ذهبت الخمرة بعقله ولعبت بأفكاره: (الكامل).

سـقـيـا لـيـوم قـد أنـخـت بسرحـة
ريّـا، تـلاعـبـهـا الـشـمال، فـتـلعـب
سـكـرى يـغـنـيـهـا الحـمام فـتـنـثـني
طـربـاً، ويـسـقـيـهـا الـغـمام، فتشرب

ويعود إلى وصف الجبين الوضاح، متنقلاً إلى وصف قامة منتصبة كالقضيب وصاحب هذه القامة كالبدر جمالاً يسحب الثوب المرفّل خلفه وله جبين يكاد يشتعل من النور الطالع من جنباته: (سريع)

مـرّ بـنـا، وهـو بـدر تـمّ
يـسـحـب مـن ذيـلـه سـحـابـا

بقامة تنثني قضيباً
وغرَة تلتظي شهابا

ويعود الشاعر ليعبر عن التشاؤم الذي يلفّ حياته من جراء ما يعانيه من المصائب التي جعلته يقضي الليل من غير أن تغمض له عين أو يكبو له جفن:

ورب ليل سهرت فيه
أزجر، من جنحه نكابا

ويشخص حوادث الكون فيعطي صفة الاملاء للرعد، وصفة الكتابة للبرق لينظم قطعة بعنوان رعد يملي وبرق يكتب، ثم يصف يومه الذي تتملكه فيه الصهباء فيجدّ ويلعب: (الطويل)

ويوم صقيل، للشباب ظللته
تجدّ بي الصهباء فيه، وألعب
رطيب بأنفاس الصبا وندى الصبا
فقد رقّ حتى كاد يجري، فيسكب

وبعد أن يجعل للنسيم لساناً يتعرض الشاعر إلى وصف ساقٍ يدير الخمرة وكؤوسها على الشاربين وكأنه هلال يلوح في عارضة السماء: (الطويل)

وساق لخيل اللحظ، في شأو حسنه
جماح، وللصبر الجميل حران

سقاها، وقد لاح الهلال عشية
كما اعوّج، في درع الكميّ سنان

ويصف الرياح شمالها وجنوبها، وينظر إلى الشيب تلفع لمته ليجعل من ذلك عنواناً لقصيدة أول شيبة (وافر).

والمشيب يؤرقه بعد أن يسميه نجماً أو يعتبره كذلك، وهذا الشيب هو بمثابة رزء للشاعر.وإذا كان ظهوره رزءاً فإن غيابه رزء أيضاً:

أرقت على الصبا، لطلوع نجم
أسميه، مسامحة، مشيبا
كفاني، رزء نفس، أن تبدّى
وأعظم منه رزءاً أن يغيبا

وحلية المشيب هدم وكسر لعرش شامخ عند الشاعر، فهو يقول في مكان آخر متعرضاً للشيب: (الطويل)

ألا ثل من عرش الشباب وثلما
لشيب تصدى، هدّ ركني وهدّما[1]

وهو إذ ذاك ينقاد للمشب ليرى الحلاوة تتمثل في الصبوة، والحلم هو للمشيب بعينه:

فصرت وقد أعطيت شيبي مقادتي
أرى صبوتي أحلى، وشيبي أحلما

(١) ثل: هدم.

ويخلص إلى الاقرار بأن للمرء هفوات وسقطات لا بد واقع فيها، وقد تكون في سنّ الشباب اللاهي، إلا أن هذه الهفوات ما تلبث أن تتحول إلى تعقُّل بعد أن يدبّ المشيب في رأس الإنسان:

وكل امرىء طاشت به غرة الصبا
إذا ما تحلّى بالمَشِيْبِ تحلّما[1]

وللشاعر في الظبية غير قصيدة. فمن ظل يتبدى في صفحة الماء إلى كلب مطوق بالبياض، إلى كلب وأرنب فشجرة منورة ومجلس أنس، والليل الداجي كجنح الغراب إلى سحابة تمشي على الظلماء.

وبعنوان طرق المعالي، قال يصف أخوين متبايني الخلقة حميدي المآب يستهل ذلك بحكمة عمادها الرجال الذين يطمحون إلى المعالي. وطرق المعالي كثيرة منها البعيد ومنها القريب: (الكامل)

طرق الرجال إلى المعالي جمة
شتى، فدان قاصد، وبعيد

وينتقل إلى وصف الأخوين فهما مختلفان في الخلقة مع أن كلاً منهما راضٍ عن نفسه:

---

(١) تحلم: تعقل.

وابنـــاك إن لم يمثــلا في خــلقــة
فــكـــلاهمـــا في مـــا يـــروم ســـديـــد

غير أنهما احتلا مكانين رفيعين في الدنيا، فالأول متوج بكرمه والثاني كذلك إذ لا مثيل له:

كــرمـــا، فـــهـــذا في مـــفـــارق عصره
تـــاج، وذاك، بـــصـــفـــحـــتـــيـــه فـــريـــد

وخير تشبيه لكل منهما فالأول كالرمح والثاني كالقلم، وهذان الوصفان من أفضل ما وصفت به العرب للفرسان والأشراف:

كـــالـــرمـــح، والـــقـــلم الـــقـــصـــير لـــنـــســـبـــة
وكـــلاهمـــا في مـــا يـــنـــوب حمـــيـــد

ويصف الشاعر ذئباً يسري في الليل وينتقل إلى الطيف الطارق ليجعله ضيفاً عليه، ويرقص جذلاً في وصفه للحديقة الراقصة، ذات الأزهار المصقولة، التي تلاعبها الريح بعد أن تضوع فروعها بروائح العطر: (الكامل)

وصـــقـــيـــلة الأنوارِ تـــلوي عـــطـــفـــهـــا
ريـــح، تـــلـــف فـــروعـــهـــا، مـــعـــطـــار

ومن الحديقة ينتقل إلى وصف غلام يوزع الخمرة في جنباتها:

عَاطَى بها الصهباء أحوى أحور
سحّاب أذيال السرى سحّار

ويعود إلى الحديقة ليصف شجرها وزهره وأغصانها، وجذوعها كل ذلك محاط بسوار كأنه من ذهب:

والنور عقد، والغصون سوالف
والجذع زند، والخليج سوار

ويصف جارية بعد أن يعطيها صفة الريحان ليعشقها، ثم يشتاق إلى الأندلس فيصنع في ذلك نتفة شعرية يستهلها باعتبار الجنة شيئاً من الاندلس.

أن للجنة في الأندلس
مجتلى حسن وريّا نفس

والشاعر مدمن على شرب الخمرة إلا أنه اقلع عنها ودخل على الشاربين وقال يصفهم بعد أن يبدو الندم عليه، ويتوق إلى معاودة الشرب: (الكامل)

يا حبذا نادي الندام ومجتلى
سرّ السرور به، ومسلى الأنفس
ولَئِنْ كففت عن المدام فإن لي
نفساً تهش بصدر ذاك المجلس

ويصف المرائين الذين يتخذون من العلم هدفاً لتحقيق

مآربهم من غير أن يفكروا ولو مرة بما يفيد الآخرين، اللهم أنهم يعمدون إلى سلب مال المساجد والكنائس: (الكامل)

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم
فيها، صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا، حتى أصابوا فرصة
في أخذ مال مساجد وكنائس

ويعمد إلى وصف اللثام الراشف مستعيراً صفة الحية للذؤابة وصفة الاقحوان للأسنان: (متقارب)

أيجني على مهجتي طرفه
ويخضب من دمها كفه
وَتَلْدَغُنِي تارة حية
هناك، يساورها ردفه
ويرشف دوني لثام له
ندى أقحوان، حلا رشفه

وينتقل لمخاطبة موضع في البادية وقيل مستنقع يجتمع فيه الماء ليسأله عن الغزال الأبيض الذي ضلّ ولده عن السرب الكبير:

فسائل برامة عن ريمها
وهل ضلّ، عن سربها خِشفُهُ

والوصف عنده متعدد الجوانب والغايات، فإذا نوع

الشاعر في أوصافه فلأنه في بيئة تفرض عليه أن يطرق كل الأبواب، لذا فهو يتزهد ويحاول أن يعبر عن ذلك بنظمه بيتين بعنوان صلاة الكسوف، وهذان البيتان يشكلان دعوة صريحة للصلاة: (متقارب)

أطـلّ وقـد خط في خـده
من الشـعـر سطرٌ دقـيـق الحـروف
فـقـلت أرى الشـمس مـكـسـوفـة
فـقـومـوا نـصـلي صـلاة الـكـسـوف

ويزهد أيضاً في العلوم الرياضـيـة معتبراً العودة إلى الكتب مجلبة للحزن والهم.

دن ديـن مـعـتـمـل في الله مـبـتـهـل
وعـد عـن سرّ عـلـم، ثـم مخـتـزن
ولا تـقـف بـطوال الـكـتـب تـسـألهـا
فـلـسـت تحـظى بـغـير الهـم والحـزن

ويـصـف معتركاً ليظهر فداحة الخسائر وشراسة القتال إذ لا هوادة بين السيف والأعناق. بعدها ينتقل لجمع التناقضات عند وصفه للحية تنساب في الروضة الجناء، والحية الغادرة تتحول إلى لطيفة ناعمة المرور خصوصاً عندما يغطي الندى أديم الأرض التي تنبسط أمام الحية الزاحفة: (الكامل)

نهر كما سال اللمى، سلسال
وصباً بليل، ذيلها مكسال
ومهب نفحة روضة مطلولة
في جَلْهَتَيْها[1]، للنسيم مجال

والغزل ينشأ بين الحية والنهر لترقى الصورة الشعرية بالتشخيصات والاستعارات فالاقحوان يبتسم، والآس يعلو الجبين، والبنفسج نقطة سوداء في صفحات الخد:

غازلته والأقحوانة مبسم
والآس صدغ، والبنفسج خال

وبين الغصن والكثيب يقيم علاقة بعد أن يجعل من المدام وسيلة لاستضحاك الحبيب: (خفيف)

ربما استضحك الحباب حبيب
نفضت، ثوبها، عليه المدام

والتلامس ينشأ بين الغصن والكثيب وكأنهما انسانان يتصافحان بعد أن تلقى عليهما التحيات:

سلّم الغصن والكثيب علينا
فعلى الغصن والكثيب السلام

وظلمة وسنا عنوان لقصيدة يفوح منها عطر التفاؤل، فالقبيح حسن والجفن مليء بالظلمة والضياء: (منسرح)

(١) الجلهة= من الوادي: حافته.

قل للقبيح الفعال: يا حسناً!
ملأت جفنيّ ظلمة وسنا

والحبيب لدى الشاعر مبعث تعب وضنى، وهو يتوسله لأن يقاسمه النعاس الذي ألمّ به:

قاسمني طرفك الضنى أفلا
قاسم جفنيّ ذلك الوسنا

وهو في هذه الحال يقسو ويلين ولا يلتزم وصفاً معيناً ولا طريقة خاصة كي لا يزعج حبيبه ولو بالشك واللوم:

قسوت بأساً ولنت مكرمة
لم ألتزم حالة ولاسننا

ويتألق شعر ابن خفاجة في وصفه للنجم والهلال ولعله يصف غادة تتحلى بالحلي والخواتم المرصعة فصوصها ذهباً والطبيعة أشبه بالسماء التي تحتضن النجوم والأهلة: (الكامل)

ما ضار لابس مثله، من خاتم
أنْ لا يشب مع الظلام ذبالا
متحملاً فصاً يروق، وحلقة
من جذوة وقدت، وماء سالا
في راحة خلقت سماء سماحة
فتقارنا نجما بها وهلالا

وتبدو جمالية الشاعر في وصفه للبدر الذي تغشاه غيم فخفت نوره وبدا هلالاً وهو مكتمل: (كامل)

ومقنع، بخلاً بنضرة حسنه
أمسى هلالاً، وهو بدر تمام

ويصف الهلال بالعقرب بعد أن منحه صفة الفارس الذي يمتطي جواداً أدهم ليصل إلى النجم العالي:

طاف الظلام به فأسرج أدهماً
وسما السّماك به فأشرع لهذما

ويسير ليلاً بعد أن يحمله العقاب الكاسر الذي استعير صفة للفرس لكي يجمع بين السرعة والانقضاض:

وسرى يطير به عقاب كاسر
أمسى يلاعب من عنان أرقما

ويصل للجمع بين الهلال والعقرب:

وسرى الهلال يدب فيها عقرباً
وانساب منعطف المجرة أرقما

وإزاء ذلك فالحيرة تتملك الشاعر وتحمله على القاء نظرات الدهشة على الحمى:

وتلددت، نحو الحمى، بي نظرة
عذرية، ثنت العنان إلى الحمى

وفي قصيدة تنوف على الثلاثين بيتاً يجمع الشاعر بين الغزل والفخر والوصف يبدأها بوقفة طللية لخيال الحبيب الذي يضرب الخيام ويلقي السلام: (طويل)

أما وخيال قد أطاف وسلّما
لقد هاجني وجد أناخ، فخيّما

ويتابع ذكره للأماكن التي تثير فيه الذكرى لعهد مضى:

واذكرني عَهْداً تقادم باللوى
وعصراً خلا بين الكثيب إلى الحمى

ويفخر بنفسه فيجعل دمعه يبوح بسره، ويذكر إذا سافر الركب (ركب الأحبة) إلى نجد، فإن مدمعه ينزل إلى تهامة، وهو بذلك يشير إلى نزول الدمع بالمطلق وفي ذلك طباق واضح.

وبِتُّ وسري راكب ظهر مدمع
طليق. إذا ما أنجد الركب أتهما

وعودة إلى الذات ليناجي الظلام متحسراً متلوعاً والحالة هذه تحدث عنها حتى الطير المغرد بصوت خفيف:

أناجي ظلام الليل فيه بلوعة
تحدث عنها الطير فَجْراً، فهينما

بأسلوبه السهل القائم على الاستعارات الغزيرة أدرج

الشاعر قصائده على اختلاف أغراضها، وجاءت الوصفية كثيرة ولو كانت بمقطوعات غير طويلة، ذلك بهدف الاكثار من موضوعات الوصف كخير دليل على غناه الفكري واتساع افقه، وقد يظهر ذلك في قصائده المدحية وما أكثرها.

ثانياً: المديح

يبدو أن ابن خفاجة كان مدّاحاً من الطراز الرفيع، إذ يحتوي ديوانه خمس عشرة قصيدة مدح فيها القضاة والأمراء والفقهاء، ما يدل على أن علاقات ودّ كانت قائمة بينه وبين هؤلاء جعلته صاحب مكانه اجتماعية عالية.

تحت عنوان فصل الربيع ورنّة المكاء[1] مدح ابن خفاجة قاضي القضاة في أيامه في قصيدة من أربعة وعشرين بيتاً جعل فيها الممدوح نسيماً ينشر الطيب المتضوع من الرياض الغنّاء تارة ومن الربى وغدران المياه طوراً وكل ذلك يهب مع الأصيل: (الكامل).

يـا نشر عـرف الـروضـة الـغـنّـاء
ونـسـيـم ظـلّ السرحـة الـعـيـنـاء[2]
هـذا يهـب مـع الأصيلِ عـن الـربى
أرجـاً، وذلـك عـن غـديـر المـاء

(١) المكاء: لعلّه بيض الثعلب أو الضبة، وقيل هو طائر من القنابر جمعه مكاكي.

(٢) العيناء: الخضراء.

ويعرّج على قاضي القضاة الموشى بالزهر والمحلى بالانداء:

عوجا على قاضي القضاة، غدية
في وشي زهر، أو حلى أنداء

ويبعث إليه تحيات الصدق وأثواب الثناء والمديح:

وتحمّلا عني إليه أمانة
من علق صدق، أو رداء ثناء

وهو يستصغر المجد أمام عظمة الممدوح الكريم الذي فاق جوده كل جود:

في حيث جر المجد فضل إزاره
ومشى الهُوَيْنَا مشية الخيلاء
من منزل قد شب، من نار القرى
ما شاب عنه مفرق الظلماء

ويسمو الشاعر بممدوحه نحو العلاء ليرتقي سلّم المجد بعد أن يعانق الكواكب في السماء يتهادى بين الهضاب والبطاح:

لو شئت طلت به الثريا قاعداً
ونثرت عقد كواكب الجوزاء

متهادياً ما بين أبطح شيمة
دمثت، وهضبة عزة قعساء[1]

والنظر إلى الممدوح لا يعدو كونك تنظر إلى رجل اجتمعت فيه صفات الحاكم العادل، العازم الحازم الرحوم:

خلع القضاء عليه خلعة سؤدد
غنيت بشهرتها عن الأسماء

ويعبق بالثناء فكأنه ريحانة بللها الطلّ:

عَبِقَ الثناء ندى الحيا. فكأنه
ريحانة مطلولة الأفياء

وهو ذكي باش:

أبدا له، في الله، وجه بشاشة
ووراء ستر الغيب، عين ذكاء

ووجه يروق بين الفصاحة والصبوح:

قد راق بين فصاحة وصباحة
سمع المصيخ له. وعين الرائي

ويصل ليجعل الممدوح قمراً يزيل الظلام الدامس ليلاً:

---

(١) دمثت: لانت.
قعساء: ثابتة.

لــو شــاء نسـخ الليــل صبحــاً لانـتحى
فـمــحــا ســواد الــليــلة الــليــلاء

وعليه يتدفق الثناء خصوصاً من السنة الشعراء:

تــثــني بــه ريــح المــكــارم خــوطــة
في حــيــث تــســجــع ألــسـن الــشــعــراء

وإذا أنشد فسنى الربيع يبدو من نشيده ورنّة المكاء تتصاعد من آهات صوته:

وكــأنــه وكــأن رجــع نــشــيــده
فــصــل الــربــيــع ورنّــة المــكــاء

ويمدح أبا إسحاق ابن أمير المسلمين في ثلاث قصائد، الأولى في أربعة وأربعين بيتاً بعنوان الملك الحسيب. والثانية في أربعة وأربعين بيتاً أيضاً بعنوان الله يعطي ويمنع قالها مادحاً ويذكر فيها محاصرة الأمير لحصن المؤريلة ويهنئه بتقلده كورة أشبيلية، والثالثة بعنوان الأمير أم الشمس وهي من اثنين وأربعين بيتاً.

أما الأولى فيجعل الممدوح فيها سبباً لعدوله عن النسيب إلى المدح: (وافر)

بمــثــل عــلاك، مــن مــلك حــســيــب
عــدلــت إلى المــديــح عن الــنــســيــب

والمدح هذا كان عاملاً مساعداً للشاعر ليجيد في تعداد الصفات والخصال الحميدة:

وساعدني ثناء فيك رطب
كما سرت التحية من حبيب

ويصف الممدوح بالجذلان الوضوح صاحب القلب السليم والصدر الرحب:

أشيم به سنا برق يمان
يخفرني إلى المرعى الخصيب
إلى جذلان، وضّاح المحيّا
سليم القلب والصدر الرحيب

وهو يسعى إلى الخير فيصيب سعيه لأنه صاحب رأي سديد:

إلى يقظان، وقاد العوالي
مريش السعي بالرأي المصيب

ويصفه بالجواد الذي لا يرد طلباً لسائل بل يغدق الأعطيات بشكل ملفت:

يساور منه، طوراً، ليث غاب
ويمسح، تارة، عطفي أديب

مـلأت يـديـك يسراهـا بـيـسر
ويمـنـاهـا بمـخـترط خـشـيـب[1]

وإذا نزلت بداره فإنك تنزل برجل تام الخلق وإن حملت من داره فالاستقامة خير زاد منه:

فـإن تـنـزل، فـلا بِسِـوَى تمـيـم
وإن تحـمـل، فـلا بـسـوى قـضـيـب

والممدوح امام قرشي، فيه من الخلال الحسنة ما يعادل رمل الكثيب:

إمـام في الـذُّؤابَـةِ مـن قـريش
وحـسـب المـجـد مـن عـود صـلـيـب
ويحـمـل في حُـبَـاهُ طـود حـلم
تـعـدُّ خـلالـه، رمـل الـكـثـيـب

وإذا هجم على العدو في ساح القتال فحسامه يزغرد، ولا تسمع من العدو إلا البكاء والنحيب، وإذا نام ينام قريراً، وإذا استيقظ فالشمس بعينها، وإذا صنفت البشرية فتجده الطبيب دائماً لكل عليل:

وقـد غـنى الحـسـام يَصِلّ قـرعـاً
وأفضى بـالـعـدو إلى الـنـحـيـب

(١) المخترط الخشيب: السيف المصقول.

فقل للخيل، والأبطال شوس
ألا كرّي، وقل للشمس: غيبي
وردد فيك نظرته، رجاء
كما التفت العليل إلى الطبيب

والقصيدة الثانية يلجأ فيها الشاعر إلى التلميح دون التصريح، حيث تكثر الكنايات ما يسبغ عليها ثوباً بلاغياً جميلاً. والشاعر يفاضل بين رأي الممدوح وحسامه: إذ يعتبر الرأي أمضى من وقع الحسام: (طويل)

أرأيك أمضى أم حسامك يقطع
ومرآك أبهى أم حديثك يسمع؟

ويعود للرؤية، فهي أبهى ما يكون، وحديثه أحسن ما يسمع:

وكل له في جانب الملك، مسلك
كريمٌ ومن نفس الإمارة موقع

وهو هنا يسلك مسلك الواعظين لتأتي أبياته حكمية أكثر منها مدحية، والممدوح قائد محبوب لا يخذله جنده في المعارك، فمن سيوفهم ينتضي البأس، ومن يشرع السعد:

لك الخير ما أهداك، والسهم صائب
يطيش، وما أعداك، والخيل تمزع[1]

(١) تمزع: تسرع.

وهـل أنـت إلا رحمـة الله تـنـكـفـي
عـذابـاً، عـلى أهـل المـعـاصي، فـتـقـمـع

وفي الحالين يشكل الممدوح رحمة لجنده وعذاباً لعدوه.

وهو أشبه بالليث الذي تجزع منه النعامة وغيرها.

عـرضـت لـه، والـلـيـث دونـك جـرأة
فـأجـفـل إجـفـال الـنـعـامـة يجـزع

وبعد أن يغدق الأوصاف على ممدوحه، يصل إلى تهنئته في ملكه الممنوح من ربّ العالمين:

فـاسـتـودع الله الأمـير ومـهـجـة
أشـيـعـهـا في مـن، هـنـاك، أشـيـع

وهـنـئـتـهـا مـن دار مـلـك، وهـنـئـت
بـه، مـلـكـاً، والله يـعـطـي ويمـنـع

أما القصيدة الثالثة وعنوانها الأمير أم الشمس، فيفصح عنوانها عن مضمون أبياتها إذ طلة الأمير الجليل تمثل عند الشاعر شمساً تحل في رأس الحمل الذي هو برج في السماء: (متقارب)

ألا هـل أطـل الأمـير الأجـلّ
أم الـشـمـس حـلـت بـرأس الحـمـل

وهو زهرة ناضرة ألبست القضيب ثوباً يلتف حوله كدليل على الاخضرار:

فـما شئـت مـن زهـرة نضرة
تـردّى الـقـضـيـب بهـا واشـتـمـل

ولما اشتمله الأمير من صفات، فإن دولته تتباهى فيه على خير الدول:

سروراً بـه عـن فـتى دولـة
تـبـاهـى بـعـليـاه خـير الـدول

وهو إذ ذاك آخر من أتت به الدنيا وأفضل رجل على الإطلاق. وهو بذلك يسمو بممدوحه إلى مراتب الأنبياء:

أتـانـا الـزمـان بـه آخـراً
تهشّ إلـيـه الـليـالي الأول

والأمير بالنسبة للشاعر خطو أمل وبسمات منى، وإذا تلثم فهو جميل كالبدر البادي من حمى الغيمات:

يَشُدُّ الـلـثـام عـلى صـفـحـة
تـرى الـبـدر مـنـهـا بمـرقـى زحـل

ولحسنه وجماله يحار الشاعر في أن يمدح أو يتغزل:

فـلم أدر، والحـسـن صـنـو لـه
أأبـدأ بـالمـدح أم بـالـغـزل

وإلى جانب حلمه وطبعه الرقيق فهو أسد بشجاعته إن حمل على القوم أو تولى حمايتهم:

وهـا هـو، والحـلم في طـبـعـه
هـزبـر، إذا مـا حمـى أو حمـل

وينتقل إلى ذكر أوصاف الممدوح الذي يمطر الأعداء وابلاً من الطعن مما يؤمن له النصر المظفر:

ويـلزمـه الـنصر حـبـاً لـه
فـإن سـار سـار، وإن حـلّ حـل
يـديـن بـضـدّيـه دون الهـدى
يـصـدّ الـعـدى ويـسـدّ الخـلل

وللذود عن حياض قومه يسيل الدماء على شفار الأسنة:

ويـدمـي الـشـفـار ويحـني الـقـنـا
ويحـمـي الـذمـار ويـرعـى الهـمـل
ويمـلأ رعـبـا صـدور الـعـدى
فـيرعـف بـأسـاً أنـوف الأسـل[1]

ناهيك عن أنه حليم، جميل القول، يصدق قوله فعله:

إذا قـال أجمـل في قـولـه
وأحـسـن مـن قـولـه مـا فـعـل

---

(١) أرعفه: جعله يسيل دماً.

وينهي القصيدة بحكمة استقى مفهومها من القرآن الكريم:

وكـــل حـــياة إلى مـــنـــتـهـــى
أجـــل، ولـــكـــل حـــمـــام أجـــل

وهذه قصيدة مدح فيها الفقيه أبا العلاء بن زهير[١]، وقد توالت كتبه إلى الأمير أبي إسحاق بمراعاته، وهي بعنوان تقلّ الوزارة في حقه، والقصيدة تقع في خمسين بيتاً يستهلها مفتخراً بنفسه: (متقارب)

شـــأوت مـــطايـــا الـــصـــبـــا مـــطلبـــا
وطـــلـــت ثـــنـــايـــا الـعـــلى مرقـبـــا[٢]
وأقـــبـــلـــت صـــدر الـــدجـــى عـــزمـــة
تـــوطـــىء ظـــهـــر الـسرى مـــركـــبـــا

---

(١) لم نعثر على ترجمة لابن زهير، ولعلّه المقصود ابن زهر، وهو زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر، أبو العلاء، من بني إياد، فيلسوف، طبيب أندلسي من أهل أشبيلية. نشأ في شرق الأندلس، وسكن قرطبة، واشتغل بالحديث والأدب، ثم أقبل على الطب، وقيل إنه أنسى الناس من قبله، حتى أن أهل المغرب ليفاخرون به وبأهل بيته، وحلّ من سلطان الأندلس محلاً لم يكن لأحد في وقته، فكانت إليه رياسة بلده ومشاركة ولاتها في التدبير، صنف كتباً، مولده غير محدد، لكن وفاته كانت سنة ٥٢٥/١١٣١.

(٢) شأوت: سبقت.
طلت: غلبت في الطول، الفضل، العطاء، القدرة، الغنى.

ثم يخاطب خلّانه متذكراً أيام الصبا التي قضاها وإياهم في منازل متعددة، وأماكن متنوعة. فهي أيام حب وعطر وندى:

خليلي من حمير حدِّثا
أخا شيبة عن ليالي الصِّبا
وبلا بذِكرِ الهوى غلة
بصدر كريم صبا ما صبا

وهو يتذكر ليلة باللوّى قضاها كما يتذكر عهداً طرباً يعود به إلى أيام الصبا التي ترعرع فيها بين أحضان ذلك المكان:

فاذكرنا ليلة باللّوى
وعهداً بعصر الصبا أطربا

ولا ينسى الماء بوادي الغضا حيث العشب يغطي جوانب النهر ليتحول إلى حمى أخضر:

وماء بوادي الغضا، سلسلاً
ومرتبعاً بالحمى معشبا

ويرجع إلى ممدوحه بعد أن يندب عصراً مضى وهو الشيخ الذي قارب الستين من العمر:

وأعولت أندب عصراً خلا
وقصر ابن ستين أن يندبا

ويتساءل إذا كان التشبب الذي يصدر عنه أهو طرب بحق أم أنه كلام يطلق على عواهنه:

وشببت أطرب لا عن هوى
وهل يطرب المرء إن شببا

ويصل إلى الخير والنعيم فيرجوهما لممدوحه:

لك الخير، شخت سوى مقول
نبيل، يذهب ما هذّبا

وهو أخو السؤدد ومثيل الكوكب:

ولله دُرُّ أخي سُؤدَدٍ
رسا هضبة، وسرى كوكبا

وهو الجواد المضياف تستصرخ النار الموقدة زائريه، حيث الموائد جاهزة وأهل الدار يغدون ضيوفاً عند الزائرين:

وتعشو الضيوف إلى ناره
فتلقى هناك، ألا مرحبا

وفي الوغى فلا تجد منه إلا النجدة سواء قطع سيفه الماضي أو نبا في كفه ذلك السيف:

وتمضي به، في الوغى، نجدة
مضى السيف، في كفّه أو نبا

وفي الحروب فهو المقدام الشجاع والبطل الهمام يُجري

الدماء من ضرب سيفه ووخز رمحه فلا تكاد ترى إلا الدماء تجري والرماح تتشظى والرقاب تنفصل عن الأجساد:

فترضى الصوارم عنه أخا
وتشكر منه المعالي أبا
فلم تر إلا نجيعاً جرى
ورمحاً تشظى، وطرفا كبا

ويشير إلى اكرام الدولة له:

لقد عرفت قدره دولة
تفدي به الأكرم، الأنجبا

وتعتبره من الأتقياء الأنقياء الذين لا يبغون إلا الخير لأنهم من ذوي الآراء السديدة:

وتعتده المُنْتَقى، المتّقى
على الخير، والحوّل القلّبا(١)

وهو إذ ذاك فلا الوزارة تليق به ولا أي منصب يرفع من شأنه:

تقلّ الوزارة في حقه
وتنزل، عن قدره، منصبا

وهو ابن آباء أجلاء، تنقاد لهم المعالي·

---

(١) الحول القلب: البصير بتقلب الأمور.

تـطول الـسـماء بـآبـائـه
وتحصي بهـم كـوكـبـا كـوكـبـا
وتـنـقـاد غـرّ المـعـالي لـه
فـيـقـتـادهـا مـقـنـبـاً مـقـنـبـاً[1]

ويه وبآبائه يلتم شمل من تفرّق بعد أن أصبحوا أيدي سبأ.

ويَـلأمُ شـتى الـعـلى والحـلى
عـلى حـين أصـبـحـن أيـدي سـبـا

وبعنوان هضبة عصمة، يمدح ابن خفاجة الفقيه أبا أمية في قصيدة من ثمانية وأربعين بيتاً يستهلها بوقفة طللية يذكر فيها الماء والظل مشيراً إلى السيف والرمح على السواء: (الطويل)

ألا مـاء إلا فـوق نـصـل يجـرّد
ولا ظـلّ، إلا تحـت رمـح يـسـدد

ولعله يصف ساحة الوغى فيلجأ إلى استعارات تضفي على المعركة نوعاً من الرهبة ويصف الجواد بالأشقر الذي يجول ويصول في الساح المليء بالجيش المتراكم كالغيوم.

ولا غـيـم إلا قـسـطل ثـار أقـتـم
ولا بـرق، إلا أشـقـر، جـال، أجـرد

(١) المقنب: شيء يكون مع الصائد يجعل فيه ما يصيده، والمقنب أيضاً جماعة من الخيل والفرسان وهي دون المائة.

والممدوح ذو رأي سديد خطه الإيمان ونهجه التقوى والورع عن محارم الله:

وما ابن عصام غير هضبة عصمة
تجير، وسقيا رحمة تتجدد
يسير به، في الحق، رأي مسدد
على منهج التقوى، وعزم مؤيد

ويضطلع الممدوح بالمجد فترتعد الأسياف مهابة:

فما ترعد الأسياف إلا مهابة
لمؤتمر في الله، ينهى وينهد[1]

وتكسف الأقمار حسداً:

ولا تكسف الأقمار، إلا حسادة
لمضطلع بالمجد، يسعى، فيسعد

وهو يذكي عينيه وراء الليل ويحلم في عزة ويتواضع دون ذل:

ويحلم لا عن ذلة، ولربّما
سطا أسد منه، وأطرق أسود

وبه يهتدي كالنجم الساطع في كبد السماء:

---

(١) ينهد: ينهض.

وسار مَسِيرَ النجم هدياً ورفعة
فغار به رأي وأنجد سودد

ندي الشمم، ناقع أحشاء الهجير ببرودة قل مثيلها:

تبرع، لم يلجأ إلى الوعد صَمْتُهُ
وعاقب، لم يقعده ضعف، فيوعد
له شيمة تندى فتشفي من الصدى
وتنقع أحشاء الهجير، فيبرد

وله رأي نيّر. ترجع إليه الأمور في كل شاردة وواردة:

فمن نور رأي لو تراءى لناظر
للاح به، تحت الدجنة، فرقد

وهو الحر النبيل الذي يعتد به كمثل أعلى:

ومن حرّ نُبْلٍ، قد أفاضته همة
فساحَ به، في سَفْحِ ثهلان، مورد[1]

وقوله حكمة تحل بها معاقد الحلم:

وقول له، في معقد الحلم، حكمة
يحل بها، في الله طوراً، وَيَعْقُدُ

وإذا حكم عدل واتخذ القرآن سبيلاً ودين الله حُجّة:

(١) ثهلان: جبل في بلاد العرب.

وحكم له دون الديانة، سورة
تقيم على جمر العقاب، وتقعد

والسيف عده حديدة لا تستعمل إلا لإلقاء الرعب والخوف في قلوب الذين لا يتعظون إلا بالقوة:

وما السيف، لولا الخوف، إلا حديدة
ولا الرمح إلا خوطة تتأود[1]

وبعنوان ما المرء إلا قلبه، قال ابن خفاجة يمدح القائد أبا الطاهر تميم[2] ابن أمير المؤمنين ويسأله مخاطبة القائد الأعلى أبي عبد الله محمد بن عائشة، شاكراً له، وقد كتب بها إليه في تلمسان يبدأ بوصف جميل للروض الزاهي والنهر الأزرق واشراقة الجيد الغض بعد أن تهب ريح النعامى لتنبه عيون الندامى في أمسيات شائقة: (الطويل)

أما والتفات الروض عن أزرق النهر
واشراق جيد الغُصْنِ في حلية الزهر

---

(١) تتأود: تأوَّد الشيخ: تعوّج وتأوّد العود تأوداً إذا تثنى.

(٢) أبو الطاهر تميم: لعله تميم بن معنصر بن المعز بن زيري المغراوي: آخر أمراء هذه الدولة في المغرب، تولى مدينة فاس، استقلالاً كأسلافه، بعد أن مات أبوه في بعض معاركه مع اللمتونيين، وهاجمه يوسف بن تاشفين اللمتوني فدافع طويلاً عن فاس، وقتل بها أكثر من عشرين ألفاً من قومه (زناتة) وبهذه الوقعة ذهبت دولتهم، توفي سنة ١٠٦٩/٤٦١.

وقـد نـسمـت ريـح الـنُّـعَـامَـى، فنُبـهـت
عيـون الـنـدامـى، تحت ريحـانـة الـفجـر

ويرجع إلى مجيئه الديار في الليل الداجي ليبدأ بمدح القائد الفذ البادي كضوء القمر في طالعة الليل:

وجئـت ديـار الحـي والـلـيـل مـطرف
منمـنم ثـوب الأفـق بـالأنجـم الـزهـر[1]
ولَـمّـا تجـلّ ضـوء صـبـح كـأنـه
مـشيـب بفـود الـليـل طـالـع مـن قـطر

والقصيدة هذه في خمسة وستين بيتاً يضمنها معظم معاني المديح التي تستأثر باهتمام القراء والناقدين، فالممدوح عنده شفيع سقاء لا يبخس أي امرىء حقه، صاحب لسان طلق لا تبرح الفصاحة والبلاغة لسانه ولغته، ولا يعرف التلعثم سبيلاً إلى حديثه.

وقال الشاعر مادحاً الأمير أبا يحيى بن إبراهيم في قصيدة من ثمانية وتسعين بيتاً بعنوان سمح الخيال. يبدأ مباشرة باغداق الأوصـاف على ممدوحه صاحب الوجه الصبوح والجبين الوضاء، الكريم المضياف الذي ينادي على القوم ليعشوا نـاره: (الكامل)

(١) المطرف: رداء من خز ذو أعلام.

سمح الخيال، على النوى، بمزار
والصبح يمسح عن جبين نهار
فرفعت من ناري لضيف طارق
يعشو إليها من خيال طاري

وهو يروي الغليل لكل من أورته الغلة، وإذا دقت ساعة القتال فتجده جرار الأذيال وحامي الديار:

وسقى فأرْوَى غلة من ناهل
أورى بجانحتيه زند أوار
جرار أذيال المعالي والقنا
حامي الحقيقة والحمى والجار

ولعظيم مهابته فالرياح تتحاشاه كي لا يخبو بريقها. وإذا تحدث ونطق فهو صاحب منطق حسن ووجه نيّر تألفه الأسماع والأبصار:

تقف الرياح بجانبيه هيبة
ويعب بحر العسكر الجرار
في حسن منطقه وهشة وجهه
مستمتع الأسماع والأبصار

وبعنوان ماذا عليك قال ابن خفاجة مادحاً أبا الحسن بن الربيع صاحب قرطبة في قصيدة من ثمانية وأربعين بيتاً بدأها بذكر النأي الطواف: (الكامل)

مــاذا عــليــك. وقــد نــأيــت ديــاراً
لــو طــاف بي ذاك الخــيــال فــزارا

ونتيجة النأي والفراق استحال عليه النوم حتى انه لم يعرف جفنه غمضة ولا عينه كبوة:

وسألتُ فيكَ اللَّيلَ عــن ســنــة الــكــرى
حــتى أجــابــني الــصــبــاح سرارا[1]

ويعود إلى ممدوحه ليعتبره كبيراً من كبار القوم وإذا دعاه فإنه لم يدع إلا رجلاً تخفق له الاجنحة والرؤوس اجلالاً وإكباراً، والمدائح إذا ما قيلت فإنها تتمثل حللاً باهية على قدّه غير أنها لا تفي بالحاجة لعظم شأنه وعلو قدره.

طــلــت المــدائــح طَــوْلَ أرْوَعَ مــاجــد
فــلبســتــهــا حــللاً، عــلــيــك قــصــارا

والممدوح يسمو ويعلو، فهو بدر بين أبناء جلدته. وذلك هو الفخر العظيم إذ أنه طلع لينير ظلمة الآخرين:

وكــفــاك أنــك مــن بــدور مــعــاشر
طــلــعــوا لأول لــيــلــة، أقــمــارا

ولم يكن صاحب قرطبة صاحب الحظوة الفريدة عند ابن

---

(١) سرارا: بكسر السين: خط بطن الكف والوجه والجبهة. وقيل وسط الرياض.

خفاجة. فألحان عنوان قصيدة قالها مادحاً أبا الحسن بن نعيم، وهي من واحد وثلاثين بيتاً يتشفع فيها بالمال الكريم ليتذكر اللقاء القصير الذي يأباه ويريده لقاء طويلاً ما بعده فراق: (طويل).

تشفَّع بعلق، للشباب، خطير
وبِتْ تحت ليل، للوصال، قَصِيْر[1]

والممدوح حسن الوجه ناضرة والنظرة إليه تنعش الروح وتدبّ الحياة في جسد الشباب:

ونل نظرة من نضرة الحسن، وانتعش
بِغُرَّةِ رقراق الشباب غرير

ويلوح وجه الممدوح بنور أشبه بنور الصبح البازغ في الفجر ويندى بادياً بضوء اخترق قناعاً أسود حجبه عن الأنظار:

وقد لاح وجه الصبح يندى كأنه
أيادي نعيم أو هضاب ثبير[2]

والممدوح فتى راشد عاقل وواعٍ وذكيّ، صفات جعلت المشيب يغزو شعره فبدا شيخاً وهو في شكل شاب يافع:

---

(١) علق: بكسر العين المال الكريم. يقال: علق خير والجمع أعلاق.

(٢) ثبير: جبل بمكة وهو أيضاً اسم ماء في ديار مزينة.

فتى شـاب في عصر الشـبيبـة حنكـة
وقـام صـغـيـراً في جـلال كـبـير

وإذا جالسته فهو مخزن للأنباء التي تثير اهتمامك وكلامه أشبه بأريج تعبق به أنفاسه فلا تجد فيه إلا السمير الجاذب والمحدث اللبق:

فـبـات. ولـلأنْـبَـاءِ فـيـه تـأرج
تـطـيـب بـه أنـفـاس كـل سـمـير[1]

وفي الوزير أبي الحسن بن رحيم قال قصيدة من عشرين بيتاً بعنوان يا لبني رحيم يذكر فيها حال السهر الذي أخذ من الممدوح كل مأخذ بسبب الحروب التي أوجبت عليه ركوب المطي وتقلد النصال للذود عن حياض قومه: (الكامل)

جـفـن تجـافى لـلـخـليّ عـن الـكـرى
وهـوى تـهـاوى بـالمـطي عـلى السرى[2]

ويمتشق الحسام ويهزه ليرجف من العدو بعد أن يبدو وهو حامل سيفه باسط اليدين، باش الوجه، مميَز بين قومه وغير قومه إذ يبدو كالقمر الطالع بين الغيوم التي تتهيأ للمطر:

ومـثـقـف لَـدْنُ المـهـز يـشـوقـه
مـا شـاقـني، فـإذا هـززت تـأطّـرا

---

(١) تأرّج: الأرج نفحة الريح الطيبة.
(٢) السرى: بالضم: نصال دقاق.

طلق المحيا واليدين، كأنه
قمر، تطلع في غمام أمطرا

وفي سبيل ذلك كله، يرتدي من الثناء لباساً قشيباً طرزته أيادي أرجفها الحياء حتى ثبت الثوب والتوى على صاحبه بعد أن صبغه بلون مميز:

لبس الرداء من الثناء مطرزا
فوق القميص، من الحياء، معصفرا[(١)]

ويتألق الشاعر واصفاً لممدوحه سابغاً عليه من قيم الاشراف مجداً حتى ان هؤلاء، وبالرغم من علو قدرهم وعظيم شأنهم فإنهم يستزيدون من شرفه شرفاً ومن علمه علماً، هذا العلم الذي ينعكس حتى على القلم الذي يدرّ من سواده كلاماً تنحني أمام عظائم الأمور، وجمال الصورة عند ابن خفاجة تصل إلى حدّ يظهر فيه القلم انساناً وليس أي إنسان بل المتبختر المختال اعتداداً بنفسه، ذاك لأنه محمول بين أنامل رجل يخشى على نفسه من حسد الحاسدين:

استمجد الاشراف من شرف به
فمشى اليَراعُ بكفّه متبخترا

(١) معصفرا: العصفر نبات، وهو الذي يصبغ به، وقد عصفرت الثوب فتعصفر وقيل: تعصفرت عنقه تعصفراً: التوت.

فلرب سمراء الأديم طويلة
حسدت براحته القصير الأصفرا

والشاعر لم يلجأ إلى المدح معزولاً عن الأغراض الأخرى، فإنه يستهل مدحه حيناً بالوقوف على الاطلال، واحياناً يفتخر بنفسه ويعتزّ بنسبه، ومرات يطلب حاجة يغلفها بأبيات مدحية كي لا يحس بالضعة وانحطاط الشأن لاعتباره موقفاً تذلّ فيه النفوس وتنحط عن مقامها الرفيع إلى ذلك يلجأ في قصيدة من عشرة أبيات نظمها بعنوان «للطل معنى ليس للمطر» استهلها بنفحات خجولة لأنه يطلب وهو لا يريد أن يعرف أحد بما طلب: (طويل)

آليت إلا أن تسير مع الفضل
وازمعت إلا أن تصمّ عن العذل

ومع ذلك فهو يعبر عن كرم نفسه وطيب أنفاسه، فإذا وضع الليل استاره تجده كالبدر يزيح الظلمة من أمام البشر، وإذا أمحلت الأرض وأجدبت فهو المطر المغيث في وقت الحاجة:

فنبت مناب البدر في ليلة السرى
وقمت مقام الوَبْلِ في البلد المحل

وإذا تهيأ للمعركة فهو أمام هدفين أساسين، الأول اشعال نار الحرب إذ قلّما تجد رمحاً أو سيفاً إلا ويطعن في صدور الأعداء، والثاني جريان الدماء بغزار على صفحات النصال من

كثرة الطعن والضرب حيث يتبدى النصر حليفاً مؤكداً له ولقومه:

وأضرمت نار الطعن في ثغرة العدى
وأجريت ماء النصر في صفحة النصل

وقال يمدح أبا بكر في مقطوعة من ستة أبيات بعنوان لأمة السعد يضمنها رقة المدامة وعطاء الغمامة: (خفيف)

أسجايا كما ترق المدامة
وعطايا كما تريق الغمامة

وإذا هجم أبو بكر فإن النصر حليفه بكل تأكيد، وإذا عاد لا يحمل على وجهه إلا علائم البشر والسعادة والسلام:

وهجوم، عليه غرّة نصر
ونجوم، عليه بشرى سلامه

ومن قصيدة مدح في الديوان ١٤ بيتاً بعنوان سيف الملك تتبدى ثقافته الواسعة التي تذكرنا بقصة يوسف وبترانيم مزامير داوود: (الطويل)

ترى يوسفاً، في ثوبه، حسن صورة
وتسمع داووداً به مترنما

ولسرعة ضربات الممدوح في معارك الحرب فإن الدم لا يعلق بنصال سيفه، هذا السيف الذي لا يكل وشفاره لا تملُ الضرب:

مضى حيث لم يعلق نجيع بنصله
فيدمى، ولم يكهم ظباه فيَكْهَمَا[1]

ويبالغ الشاعر في وصف ممدوحه إذ يطلق عليه صفات خارقة تكاد تكون ضرباً من الخوارق:

له عزمة لو نهنهت صارماً نبا
فلم يمض، أو مرّت بطود تهدّما

وهل للممدوح هذه القدرة التي تهدّ الجبال، ثم إن رأيه مصيب أبداً وكأني به يصقل السيف ويزيل عنه كل صدأ:

ورأي جلا بيض السيوف طريرة
وثقف مَيَّادَ الرماح ولهذما

وبعنوان «فيا راكباً» قال الشاعر يمدح أميراً يدعى أبا حسن في قصيدة من ثمانية وأربعين بيتاً يستهلها بنفس تشاؤمي تظهر منه حاله الشقية إذ يخاطب أنفاس الرياح متمنياً عليها أن تخاطب ذوات الثغور الباسمة الواضحة. (طويل)

ألا ليت أنفاس الرياح النواسم
يحيين عَنِّي الواضحات المباسم

ويفخر بنفسه ليذكر علوّ همته خصوصاً عندما يستلُّ سيفه ويتقلد رمحه:

---

(١) يكهم: يكلّ.

لقد طال صدر الرمح مني بهمة
تهزُّ بها العلياء صفحة صارم

ويتوجه إلى الممدوح ليجعله معطاء كريماً يعطي بغير حساب.

أبا حسن كم منة لك حرة
كما سح صوب العارضِ المتراكم

والممدوح روضة غناء تطل من الأعالي على كل انسان وتساهم إلى حد بعيد في جمال المنظر وطيب العطر المتضوع:

فما روضة غناء في رأس ربوة
تعلُّ بمنهلٍ، من المزن، ساجم
بأحسن مرأى من حلاك لناظر
وأعطر نشراً من ثناك لناظم

وبهذه القصيدة نأتي على ختام قصائد ابن خفاجة المدحية التي شاركت فيها عاطفته عقله، فانتظمت الأبيات حسنة السبك، جميلة المعنى، غنية الصور.

ثالثاً: الرثاء

ثلاثمائة وواحد وثلاثون بيتاً من الشعر نظمها ابن خفاجة راثياً عدداً من الأعيان أبرزهم أبو محمد عبد الله بن ربيعة الذي خصه بأربع قصائد، والأبيات الباقية كانت في أم الفقيه قاضي القضاة أبي أمية، وفي ابن أخته محمد وفي بعض اخوانه.

نلاحظ أن قصيدة الرثاء تتمثل مزيجاً من التأبين والمديح، فالراثي يصوّر من يرثيه بأحلى الصور وأبهاها، حتى يخيّل للقارىء والسامع أن الأبيات مدحية أكثر منها رثاءً:

فالوزير أبو محمد عبد الله بن ربيعة في قصيدة ابن خفاجة «في كل ناد منك» روض ثناء وجدول ماء يغدق بالعطايا من غير بخل ولا تقتير: (الكامل)

في كل نادٍ منك روض ثناء
وبكل خدٍّ فيك جدول ماء

والممدوح معطاء لدرجة أنه غصن يهتز لكل شخص، وفيه بغية كل إنسان حتى انه يطرب المحزون ويسلي الباكي:

ولكل شخص هزة الغصن الندي
غبَّ البكاء، ورنَّة المكاء

والممدوح مطلع أنوار يؤسف عليها في كل آن وحين، والأسف من غير شك على الممدوح المفقود:

يا مطلع الأنوار إن بمقلتي
أسفاً عليك، كمنشإ الأنواء

وبموته تنقطع الأوصال وتزول العلاقات إذ لم يعد بين المادح والممدوح موعد للقاء ولا سفراء يحملون الرسائل المتبادلة بينهما:

وكفى أسى أن لا سفيرٌ بيننا
يمشي، وأن لا موعد للقاء

ويخلص يائساً إذ يعتبر الزمان سلبه أعزّ شيء وأفضل إنسان. وهو إذ ذاك لا يحتاج إلى من يدعوه للصبر والتجمل لا مجال لذلك على الإطلاق:

فيم التجمل في زمان بزّني
ثوب الشباب، وحلية الشبلاء[1]

وموت الوزير يشكل عرياً للشاعر إلا من الكآبة التي تلفه والحزن الذي يثقل صدره، ذلك ما يجعل العبرات تنهمر بغزارة كلما مرّ بمعهد شبيبة أو رسم دار:

فعريت، إلا من قناع كآبة
وعَطِلْتُ، إلا من حليّ بكاء

(١) بزني: سلبني.

فإذا مررت بمعهد لشبيبة
أو رسم دار، للصديق خَلاءِ

وهو في هذا الموقف متأثر جداً، تغرورق عيناه بالدموع التي تتحول إلى حجاب كثيف يحول بين النظر والرؤية، وهذا أشبه ما يكون بالغيوم المتكاثفة لتحجب نور الشمس عن عيون الناظرين:

جالت بطرفي، للصبابة، عبرة
كالغيم رق، فحال دون سماء

لذا تضعف همته وتنحط عزيمته. فيتوسل إلى الباري أن يساعده ويزيح عنه الكابوس بعد أن يصعّر خدّه مذلّة وخشوعاً ليستنزل الرحمة من الله عبر عليائه الزرقاء

ورفعت كفي بين طرف خاشع
تندى مآقيه. وبين دعاء
وبسطت في الغبراء خَدّي ذلّة
أستنزل الرُّحْمى من الخضراء

والفقيد سيد الفرسان، سباق إلى حلبة الصراع، وبموته يجتاح الألم صدر الشاعر ويعيش في الكابوس ليل نهار:

متململاً ألماً بمصرع سيّد
قد كان سابق حلبة النجباء

ويعمد إلى القسم بالرحمن الذي خرّ بين يديه، ان الفقيد ذخره وسلوته في الشدة والرضاء:

لا والـذي أعـلقـت، مـن تـقـديـسـه
كـفّـي بـحـبـلي عـصـمـة ورجـاء
وخـررت بـين يـديـه، أعـلـم أنـه
ذخـري، لـيـومـي شـدّة ورخـاء

وبموته مات الأمل، وحلّ الردى والأسى. ونأى الفقيد إلى حيث لا رجعة:

لا هـزني أمـل وقـد حـل الـردى
بـأبي محـمـد المـحـل الـنـائـي

وانطفأ النور وبهت بريق ذلك الوجه الوضاح:

في حـيـث يـطـفـأ نـور ذاك المـجـتـلى
وفـرنـد تـلـك الـغـرة الـغـراء

وبعد أن عاثت يد البلا بتلك الصورة الحسناء فسكتت وصمّ نطقها وأظلمت تلك السرحة التي طالما كنا نروّح فيها عن أنفسنا عند كل هم وغمّ:

وكـفـى اكـتـئـابـا أن تـعـيْثَ يـد الـبـلى
في محـو تـلـك الـصـورة الحـسـنـاء
فـلـطالمـا كـنـا نـريـح بـظـلـه
فـنـريـح مـنـه بسرحـة غـنـاء

والصورة الحسنة المتمثلة بوجه الوزير تفتق نورها وتبث الجلساء نسائم الحب:

فتقت، على حكم البشاشة نورها
وتنفست في أوجه الجلساء

فتفرج عنهم كل غمّ تماماً كما القمر الذي يجلي الدهماء بعد أن يسطع نوره الوضاء:

تتفرّج الغماء عنه كأنه
قمر يمزّق شملة الظلماء

ويسلو حزنه بأن يجعل من القمر شريكاً له في حزنه الذي أورثه إياه الفقيد وهذا القسط من الحزن يشكل عبئاً ثقيلاً يرزح تحته القمر:

قاسمت فيه الرزء أكرم صاحب
فمضى ينوء بأثقل الأعباء

والفقيد في النهاية نجم ساطع وكوكب منير وكأنه قلادة الجوزاء التي تعرف بالقوس:

ولئن تراءى الفرقدان بنا معاً
وكفاك شهرة سؤدد وعلاء
فلطالما كنا نروق المجتلي
حسناً، ونملأ ناظر العلياء
يزهى بنا صدر النديّ، كأننا
نسقاً هناك، قلادة الجوزاء

وغالباً ما تتحول قصيدة الرثاء إلى أبيات حكمية تندى بالمواعظ، وتعبق بالتأمل، ذلك ما يظهر في القصيدة الثانية التي يرثي فيها الشاعر الوزير أبا ربيعة، وهو في ذلك فارس أشعار لا تضطرب عنده الأوزان، ولا تتعثر القوافي ولا تتكأ الكلمات، مع أنه ساق الصفات المثلى في قصيدة سابقة فإننا نراه يحشد الصور ثانية من غير عنت ولا تكلف: (طويل)

شراب الأماني، لو علمت، سراب
وعتبى الليالي، لو فهمت عتاب
إذا ارْتَجَعَتْ أيدي الليالي هباتها
فغاية هاتيك الهبات ذهاب

ويسترسل في ذكر المواعظ ليذكر بأن الإنسان طريدة يطاردها الموت كما يطارد العقاب حشرة أو طائراً أصغر منه:

وهل مهجة الإنسان إلا طريدة
تحوم عليها للحمام، عقاب

والموت يقترب من الإنسان بسرعة تماماً كما يركض الإنسان إلى الموت ركضاً:

يخب بها، في كل يوم وليلة
مطايا إلى دار البلى وركاب[1]

(١) يخبّ: خبّ الفرس في عدوه: راوح بين يديه ورجليه أي قام على إحداهما مرة وعلى الأخرى مرة.

وموت الوزير أبي ربيعة مبعث الحزن إذ لا يمكن للدمع أن يكف عن الانهار والاحشاء لا يمكن أن تبرد:

وكيف يغيض الدمع أو يبرد الحشا
وقد باد أقران، وفات شباب

والذي يموت لا يعوّض إذ لا ينوب أحد مناب الآخر:

فما ناب عن خل الصبا، خل شيبة
ولا عاض، من شرخ الشباب خضاب

وغيبة الأصحاب واحدة إذ لا يمكن للغيبة من إياب:

ألا ظعنا، من صاحب وشبيبة
فهل لهما من ظاعنين إياب

وينتهي إلى الاقرار بأن الناس من التراب وإلى التراب يعودون:

دعا بهما صرف الليالي إلى البلى
فكل الذي فوق التراب تراب

وبعد هذه الاستهلالية الحكمية، ينتقل الشاعر إلى وصف الفقيد رائياً ليبكي الأماكن التي جمعته وصاحبه:

فها أنا أبكي كل معهد راحة
تضاحك أحباب به وصحاب

ويقف في هذه الأماكن يجيل الطرف ليرى أثراً لنديمه إلا أنه لا يعثر بنفس من أنفاسه:

أقلّب طرفي لا أرى غير ليلة
وقد حطّ عن وجه الصباح نقاب

وبفقد الوزير يتحول الشاعر من بلبل غريد إلى حمامة مطوقة من الغربان من كل جانب، فالعين تهمل دمعاً حتى تبدو الوجنتان عائمتين في عباب البحر:

كأني وقد طار الصباح، حَمَامَةٌ
يمدُّ جناحيه عليّ غراب
وقد جاش بحر، بين جنبيّ، مائج
له زَخرَةٌ، في وجنتي، وعباب

والفقيد واحد من قوم عملت يد الرّدى فيهم فأخذوا يتهاوون الواحد تلو الثاني، وذلك ليس إلا رزية تحلّ بالشاعر من جراء السهام التي تصيب فؤداه:

دعا بهم داعي الرَّدَى، فكأنما
تبارت بهم خيل، هناك، عراب[1]
فها هم، وسلم الدهر حرب، كأنما
جشا بينهم طعن لهم وضراب

(١) عراب: خيل أو إبل عراب وأعرب: كرائم سالمة من الهجنة.

ويندب حظّه لتبدو علامات اليأس والاستسلام عليه:

فحتى متى تبري الليالي سهامها
وحتى متى أرمى بها فأصاب

ويعود الشاعر ليطل بالوعظ والحكم ليقرر بأن الحياة إما عدو كما الأسود بغير خوف، أو كما تمشي الذئاب لتحل الكوارث بالآخرين:

فإما كما تعدو الضراغم عنوة
وإما كما تمشي الضراء ذئاب

ويرجع إلى الرثاء فيعتبر موت الوزير فتكاً ذريعاً تمزق منه الجيوب بعد أن خلا الربع من الخلان، أو وقع الجفاء بين الحسام والقراب:

ففي كل يوم فتكة لملمة
يمزّق جيب، تحتها، وإهاب
وربع خلاء من خليل، وإنما
تجافى حسام منهما وقراب

ويخصص الوزير ابن ربيعة الوفي، الأنيس على مدى ثلاثين حقبة لا تنقطع فقطعها الموت، وهو لا ينسى ذلك اطلاقاً وإذا نسي ما بينهما من مودة وحسن وصال لانتفى وجود الوفاء بين البشر:

فلست بناس صاحباً من ربيعة
إذا نسيت رسم الوفاء صحاب

وهو يقارن بين القرب والبعد، فالقرب عنده عذاب لأنه خلّق فيه ذكرى تتحول إلى أسى ولوعة:

أجلت طباعي فيه، فالانس وحشة
طوال الليالي، والنعيم عذاب

والشاعر يتمنى لفقيده أن يموت موت الأبطال إذ أنه فارس همام لا يبغي إلاّ الاستشهاد في ساحة الوغى، وكونه مات على فراشه من غير قتل أو ضرب فإن ذلك مثار حزن وألم للشاعر لأن أمنية صديقه لم تتحقق:

ومما شجاني أن قضى حتف أنفه
وما اندق رمح، دونه، وذباب[1]

وبعد طول صحبة ومجاراة، وقع الهجران، وغدر الدهر بالفرعين فلوى أحدهما وهو في ريعان الشباب:

وأنا تجارينا ثلاثين حقبة
ففات سباقاً، والحمام قصاب[2]

---

(١) مات حتف أنفه: أي على فراشه من غير قتل أو ضرب.
الذباب من السيف: طرفه الذي يضرب به.

(٢) القصاب: لعله أراد بها القطع. فيكون المعنى أن الحمام (الموت) يقطع بين الرفاق ويفرقهم.

وكيف تهاجرنا كهولاً، وإنما
لنوى الدهر فرعينا، ونحن شباب

ويذكر الشاعر أيام الكرّ في الحروب فكانا يسرعان إلى الشيء من غير أن يتمكن أحد من ردّهما عن هدفهما، وإزاء ذلك لا بد للعدو من العودة عن خطاياه ويبتغي التوبة:

جمحنا بميدان الصبا، ثم إنَّنَا
كررنا، فكانت فتنة ومتاب[1]

إلا أن الشاعر يعود إلى الله ليقتنع بمشيئته العليا، ويدعو إلى الكف عن البكاء والحزن، وبذلك يمكن القول بأنه انتصر على عواطفه وعاد العقل ليحكم.

ولو أن غير الله كان أصابه
لجاشت نفوس، لا تُقَادُ، صعاب
فيا ظاعناً قد حط، من ساحة البلى
بمنزل بين، ليس عنه إياب
كفى حزناً أنْ لم يردني، على النّوى
رسول، ولم ينفذ إليك، كتاب

غير أنه ما يلبث أن يرجع ليصور عظمة المصاب وهوله، ويذكر الحال التي يكون عليها عندما يرجع إلى نفسه ويتذكر صديقه، فيقصد مثواه الأخير ليقف وبينهما حجاب من التّراب.

(١) جمح: الرجل إذا ركب هواه وأسرع إلى الشيء، فلم يمكن ردّه فهو جموح تشبيهاً له بالجموح من الخيل.

وإني، إذا يممت قبرك زائراً
وقفت ودوني، للتراب، حجاب

وكل شيء عندئذٍ مظلم حتى ولو كانت الشمس ساطعة ومنيرة، والدنيا ضيقة على الرغم من اتساعها وامتداد آفاقها:

فأظلم قرن الشمس، وهي منيرة
وضاقت بلاد الله، وهي رحاب

ويعود ليستسلم للحزن والأسى فتنهمر الدموع من عينيه:

ورقرقت بين الحزن والصبر عبرة
لها جيئة في مقلتي وذهاب

وإذا نشأ الحوار بين الخليلين. فإن الحوار يطول مع أنه بين ميت وحي:

ولو أن حيا كان حاور ميّتا
لطال كلام، بيننا، وخطاب

ويخلص إلى القاء التحية على الفقيد، ويعتبره طاهراً مطهراً من كل دنس:

عليك سلام الله من صاحب قضى
فأجهش ربع، بعده، وجناب

وكما استهل القصيدة بحكمة فإنه ينهيها بحكمة:

ألا إن جسماً يستحيل لتربة
وإن حياة تنتهي، لخراب
فلا سعي إلا أن يكون لأجل
ولا ذخر إلا أن يكون ثواب

- وفي رثاء أم الفقيه قاضي القضاة أبي أمية بعنوان عبرة الجماد، يجسّد الشاعر الأشياء ليجعلها تبكي كالإنسان: (الكامل)

في مثله من طارق الأرزاء
جاد الجماد بعبرة حمراء

والبكاء غزير دمعه حام يحرق الوجنات:

من كل قانية، تسيل كأنها
شهب، تصوّب من فروج سماء[1]
تحمى، فتغرق مقلة في جاحم
منها، وتحرق وجنة في ماء

ومن كثرة البكاء، أزالت الدمعة النعاس وغسلت سواد العين:

محت الكرى بين الجفون وربما
غسلت سواد المقلة الكحلاء

---

(١) القانية: أراد بها دمعة قانية، حمراء.

وبذا فهي ثورت الأحشاء غلة لا تقدر:

لا تورث الأحشاء إلا غلة
والماء ينقع غلة الاحشاء[1]

ويوم فقدان أم الفقيه، يوم رزء فادح حوّل النهار إلى ليل ثقيل، وبه جمع الحداد إلى العويل:

أهول به من يوم رزء فادح
سحب الصباح به ذيول مساء
جمع الحداد إلى العويل فما ترى
في القوم، غير حمامة ورقاء[2]

والناس إذ ذاك بين ناصب ونادب، ودمع العين تجري وتكاد أن تسقي الدوحة من غزارتها:

من ماسح عن وجنة ممطورة
أو رافع من زفرة صعداء
وكأنما يسقي، بما يبكي، ثرى
ما قد ذوى من دوحة العلياء

وما يلبث أن يدعو إلى الصبر والسلوان، والتحلي بالصبر شيمة من شيم النبلاء والاشراف:

---

(١) ينقع. يروي.
(٢) ورقاء: الحمامة التي يضرب لونها إلى الخضرة وتشبّه بها النفس.

ولئن صبرت، وصبر مثلك حسبةً
فلقد أخذت بشيمة النبلاء

والأيام ستكشف عن أسرارها وتتضح عواقب الأشياء:

كشفت له الأيام عن أسرارها
فرأى جليّ عواقب الأشياء

ويعود الشاعر إلى ذكر المواعظ ليعتبر أن بقاء الإنسان فناء:

ما ارتاب أن سروره لكآبة
يوماً، وأن بقاءه لفناء

وقد يأتي اليوم الذي يرتحل فيه عن الأحياء ليتوسد التراب بعد أن يصرعه الموت وتذرف الدموع بكاء عليه:

فكأنه، والعيس تبسط خطوة
قد بان مرتحلاً عن الأحباء
فلرب ركب للردى، تحت السرى
ضربوا قبابهم بِهَا لثواء
متوسدين بها التراب، كأنهم
لم يرتعوا في زهرة النعماء

والموت إذ ذاك مصاب يروع حتى قلوب الصخر مع أنه ليس للصخرة قلب وهذا دليل على عظمة المصاب:

يستنزل الأروى، هناك، سكينة
ويروع قلب الصخرة الصماء[1]

وفي رثاء محمد ابن اخته، وقد مات في أغمات[2] قال الشاعر قصيدة بعنوان مثوى الحبيب يستهلها بذرف الدموع ومسحه، حتى تغدو الدموع وكأنها بحر مدرار: (الطويل)

أرقت أكف الدمع، طورا، وأسفح
وأنضح خدّي، تارة، ثم أمسح
ودونك طمّاح من الماء مائج
يعبّ، ومغبر، من الترب، أفيح[3]

ويعتبر نزول الليل سبباً لازدياد الهم عليه:

إني إذا ما الليل جاء بِفَحْمَةٍ
لأوري زناد الهم فيها، فأقدح

وإذا أتى الصباح فكأنه الليل يسدل ستاره عليه كدليل على الحزن والتشاؤم إذ طالما أوحشه هذا الليل وألبسه ثوباً من الحزن والشقاء لدرجة اليأس ولم يعد يرى السعادة اطلاقاً، وهذا دليل على أن رزأه بابن اخته كان أليماً وقاسياً:

---

(١) الأروى: واحدتها أروية: ضأن الجبل.

(٢) أغمات: بلدة في المغرب.

(٣) طماح: أراد به البحر.
الأفيح: الواسع.

وألقى بياض الصبح يسود وحشة
فأحسبني أمسي على حين أصبح
ويوحشني ناع، من الليل، ناعب
فأزجر منه بارحاً ليس يبرح

ويستقبل ذكرى ابن أخته محمد لتتحول الحياة إلى شقاء كلها:

واستقبل الدنيا بذكرى محمد
فيقبح في عيني ما كان يملح

ويرجع لطلب العفو من الله:

واشفق من موت الصبّا ثم انني
لآمل أن الله يعفو، ويصفح

ويصف ابن اخته بالغلام الطري عوده، الندي، ليجعله أشبه بالمطر الخفيف الذي يهوى على الأشجار من غير أن يقسو عليها:

غلام، كما استخشنت جانب هضبة
ولان على طشّ، من المزن، أبسطح[١]

وهذه الذكرى تشعل النار في جنبي الشاعر، وتغرقه في بحر من الدموع وتدفعه إلى لوم الدهر على غيلته المجرمة:

(١) الطش: المطر الضعيف.

كــأن لهــيـبــاً، بــين جــنــبــي، واقــداً
بـه، ورَكـايَـا، بـين جـفـني، تمـتـح[1]
جـلـسـت أسـوم الـدهـر فـيـه مـلامـة
وكـنـت، كـما قـد كـنـت أثـني وأمـدح

ويصف نفسه عندما يبكي وكأنه حمامة ورقاء تترنم على صوتها الحزين وهي واقفة على أيكة ضاربة في أعماق الأرض:

تـراني، إذا أعـولـت حـزنـاً، حمـامـة
تـرن، وطـوراً، أيـكـة تـترنـح

وعندما يبكي يغرق في بحر من الدموع تحيط به الهموم من كل جانب:

غـريقـاً ببـحـر الـدمـع والهم والـدجى
ولـو كـان بـحـراً واحـداً كـنـت أسـبـح

ويخلص إلى وقفة حكمية ليحكم بأن النفس مشتاقة إلا أن الصبر أقوى من كل شيء:

فـلي نـظرة نـحـو الـسـماء، ولـوعـة
تَـلَذُّ بِي، نـحـو الجـنـوب، فـأجـنـح
فـرادعـت عنهـا الـنفس، والـنفس صبّـة
وراوغـت حسـن الصـبر، والـصـبر أرجـح

---

(١) الركايا: واحدتها ركية: البئر.

وينهي القصيدة معترفاً باللوعة التي عبّر عنها دمعه.

فنمّ، بأسرار الصبابة، مدمعي
وكل إناء بالذي فيه، يرشح

ويناجي نفسه بعد أن يخاطب ذلك الذي يعرض إلى الدنيا ويستقبل الليالي والدموع تنهمل من عينيه وهو يمسها ليفسح في المجال أمام العبرات كي تجري متجددة على خديه:

فيا عارضاً، يستقبل الليل واكفا
ويسري، فيطوي الأطولين، ويمسح

ويدعوه إلى زيارة الضريح بعد أن يرش عليه شيئاً من الندى المتمثل دمعاً مدراراً:

تحمّل إلى قبر الغريب مزادة
من الدمع، تندى حيث سرت، وتنضح
وعرّج على مثوى الحبيب، بنظرة
تراه بها عيني، هناك، وتلمح

وبعنوان كفاني شكوى قال ابن خفاجة يرثي بعض إخوانه، ويندب ما تقضى من زمانه، وضمّن القصيدة مدحاً للوزير أبي العلاء بن زهر[١] في سنة ٥١٤/١١٢٠، يستهلها

---

(١) انظر ص ٦٦

بمطلع يتبدى منه الضعف متملكاً الشاعر كدليل على تأثره وتألمه البالغين: (طويل)

كفاني شكوى أن أرى المجد شاكياً
وحسب الرزايا أن تراني باكيا[1]

ويسكت الشاعر على مضض، يخفي تأثره، ويحبس دمعه غير أن المصائب أقوى منه:

أداري فؤاداً، يصدع الصدر زفرة
ورجع أنين، يحلب الدمع ساجيا

وما تنقضي ليلة واحدة إلا والعويل آخذ منه كل مأخذ، وبدت له الحياة مصائب متتالية:

وها أنا تلقاني الليالي، بملئها
خطوباً، وألقى بالعويل اللياليا

ويعطي لنفسه صفة الطير الذي يطوي جناحيه على الجراح:

وتطوي على وخز الأشافي، جوانحي
توالي رزايا لا ترى الدمع شافيا[2]

ويعود للتصريح بفائدة البكاء إذ فيه راحة للنفس:

---

(١) مأخوذ من بيت للمتنبي يستهل به قصيدة يمدح كافوراً سنة ٩٥٧/٣٤٦، يقول:
كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً   وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

(٢) الأشافي= واحدها الإشفى: المثقب، المخرز.

فقلت لها: إن البكاء لراحة
به يشتفي من ظنّ أن لا تلاقيا

ويسلم بأن الدهر أقوى منه:

ألا إن دهراً قد تقاضى شبيبتي
وصحبي لدهر قد تقاضى المرازيا

وبعد أن كان يهدي المدائح أصبح بموت الوزير هادياً للمراثي:

وقد كُنْتُ أُهدي المدحَ والدَّارُ غربةٌ
فكيفَ باهدائي إليهِ المَراثيا

ويدعو أحبابه في العدوتين[1] متمنياً عليهم أن يجيبوا نداءه لعله ينسى حزنه ويخفف ألمه:

أأحبابنا بالعدوتين صَممتُمْ
بحكم الليالي أن تجيبوا المُناديا

وينهي القصيدة بالاعتراف أنه ندب ورقرق الدمع على أخ عهده وحسبه بيتاً من بيوت المكارم:

وقد ندبت، من حيث لم أدر، رقعة
أنَمّق، أم دمعاً أرقرق جاريا

---

(١) العدوتين: مثنى العدوة: شاطىء الوادي وجانبه، وكان أهل الأندلس يسمعون بالعدوة، أرض المغرب، وأهل المغرب يسمون بها أرض الأندلس.

شقيق الندى وابن النهى وأبو العلا
وحسبك بيتاً في المكارم عالياً

بهذه القصيدة، نختم حديثنا عن الرثاء عند ابن خفاجة، وكان الشاعر فيه صادق العاطفة، رهيف الحس والشعور، وهو يعبر عن ألمه وحزنه من غير تكلف ولا تملّق.

رابعاً: الإخوانيات

أربعماية واثنان وثمانون بيتاً من الشعر نظمها ابن خفاجة في الاخوانيات، وهي القصائد والمقطوعات والنتف التي داعب فيها إخوانه وخاطبهم في أمر ظريف، وهذه الأبيات توزعتها نتف من بيتين، وقصائد أكبرها من اثنين وستين بيتاً.

عيد المنى عنوان قطعة من سبعة أبيات، نظمها الشاعر ليداعب فيها صديقاً له معتبراً اللقاء عيداً يجدد عهد الشباب بعد المشيب: (الطويل)

ألا حبذا عيد تلاقت به المنى
فجدّد، من عهد الشباب، مشيب

ويشير إلى مداعبات صديقه لربات الحجال، ويعطي الجسد صفة القضيب وما فيه من منخفضات ومرتفعات صفات الجبال والأودية:

وأعرض، في حسن المليحة، أملح
يلاعب، ربّات الحِجَالِ، ربيب
تهادت تثني، وهي تذعر، فالتوى
قضيب بها، وارتجّ منه كثيب

ويذكرّه بمغامراته مع الفتاة بعد أن زارها تحت جنح الليل، وخرج مصطحباً إياها ليطوف وهي تجهل أين يطوف بها:

أتـــتـــك، وأفـــيـــاء الـــشـــبـــاب تُـظِـلُّـها
وهـــل زار إلا في الـــظـلام، حـــبـيـــب؟

فَـطُـفْـتَ بـهـــا. تمشي الهـــويـــنـــا، وإنمـــا
تمشّي إلـــيـــهـــا، وهـــي تجـــهـــل، ذيـــب.

وفي قصيدة أخرى يستطعم عنباً في خمسة أبيات أرسلها إلى اسحاق بن ميمون بدأها مادحاً تـارة ومقرعـاً أخرى. (متقارب).

بـــرعـــت، فـــرعـــت، فـــمـــن ذا حـــبـيـــب
لـــه الـــويـــل، أم مـــن أبـــو الـــطـيـــب

والممدوح فائز بكل غاية وهدف في حين من يجاريه في هذه الغاية لا بد أنه خائب:

ولـــو جـــاريـــاك إلى غـــايـــة
لـــفـــزت، وكـــانـــا مـــن الخـــيّـــب

ويصل إلى طلب الثمار التي أحبها ورام إليها:

وحـــســـبـــي عـــلـــيـــاك مـــن دوحـــة
وبـــرّك مـــن ثـــمـــر طـــيّـــب

وقال وقد عاده الفقيه ابن عائشة يوم مرض وقعد طريح

الفراش، بعنوان: قلب ثان وعين ثالثة ينقم فيها على الأيام ويتمنى للفقيه الخلاص والنجاة من يد الدهر التي تعيث فسادا بأبناء البشر: (الكامل)

إن الليالي لا دهَمْنَكَ، لعائِثَهْ
فوقيت فيك يد الزمان العابثه

ويعتبر الزيارة مبعث اطمئنان وراحة، لأن زيارة الخلّ تذهب عن النفس الغم والأسى:

وسلمت من خل يعود على النوى
كرماً، فتنفرجُ الخطوب الكارثه

وبلقائه للزائر يعتبر أنه أصبح يملك قلباً آخر وعيناً ثالثة وهذا دليل محبة وتآلف:

فأرى به، للقلب، قلباً ثانياً
عزاً، وللعينين عيناً ثالثه

وبعنوان بشرى كوجه الصباح، قال ابن خفاجة يهنىء قاضي القضاة أبا أمية بعود القضاء إليه: (سريع)

بشرى، كما أسفر وجه الصباح
واسْتَشْرَفَ الرائد برقاً ألاح

وعودة القضاء إلى صاحبه أشبه بارتجاز الرعد كتعبير عن السرعة باستنزال الغيث:

وارتجز الرّعد يمجّ الندى
ريّا، ويحدو بمطايا الرياح

وعودة أبي أمية إلى القضاء أعاد إلى الربى زهوتها وتخلصت البطاح من جدبها:

فَدَنَّرَ الزهر متون الرّبى
ودرهم القطر بطون البطاح[1]

وقاضي القضاة عند ابن خفاجة متألق كأنه طال النجم في السماء:

عزٌّ تهادى بالقنا هزة
واختال بالجرد المذاكي مراح
فطاول النجم، منار الهدى
وأحرز الدين مُعَلَّى القداح

وهو خير إمام ملأ الأرض عدلاً:

خير إمام، دام في عسكري
جَدّ وجِدّ، ملء صدر البراح

والمجد مرتعه والملك يخفق الجناح له.

فالمجد ممطور جناب المنى
والملك خفاق جناح النجاح

(١) دنّر ودرهم: أي كسا الزهر الربى والبطاح بأمثال الدنانير والدراهم في لونها وشكلها.

في رقـعـة تحـمـل مـن رفـعـة
لألاء أوضـاح الـوجـوه الـصّـبـاح

وينهي القصيدة بنفحات وجدانية تطري على الممدوح لتجعله يخجل حيناً ويهفو آخر معترفاً بأن الرزايا من أصعب ما يكون فجرحها يطول والعبرات ما تنفك تجري:

أمَضَّهُ جـرح دخـيـل بـه
إن الـرزايـا مـن أمضّ الجـراح
فـرقـرق الـعـبرة في خَجْلَةٍ
وربّمـا يمـزج بـالمـاء راح
مـا غضّ بـالـدمـعـة إلا هَـفَـا
فـانـظر تجـد ثـم الـسـوار الـوشـاح[1]

وبعنوان أطرسك أم ثغر مبتسم قال عن شعر وردّ عليه معتبراً أن الكلام أنفاس تتعالى من رياض نافحة: (الطويل)

أطـرسـك أم ثـغـر، تَـبَـسَّـمَ، واضـح
ولـفـظك أم روض، تـنـفس. نـافـح؟

ويلتفت إلى البلاغة والفصاحة اللتين تلفان كلامه المنمق:

---

(١) في البيت التفات من الغائب إلى المخاطب، أي إلى الحاسد الذي دعا عليه بألا تنام عينه، وربما أراد بقوله السوار الوشاح. المجد والسؤدد أو ربما أراد بالسوار المساورة أي المواثبة، وبالوشاح السيف، أي أن الممدوح يواثب بسيفه من يساجله.

تـلوح بـه، في دهمـة الحـبر، غـرة
ويـركض، في شـوط الفصـاحـة. سـائـح

ويلوم نفسه إذا لم يقدّم الشكر لمن أرسل له شعراً حسناً:

فـإن أنـا لم أشـكـرك، والـدار غـربـة
فـلا جـادني غـادٍ مـن المـزن. رائـح

وأين الوجع عنوان لبيتين قالهما بعد أن ذكر له بعض الشعراء أنه استماح بعض البخلاء فأعطاه نزراً يسيراً. واعتذر إليه من رمحة فرس أصابته فقال يذم ذاك البخيل المقلّ: (الكامل).

مـا إن درى ذاك الـذمـيـم وقـد شـكـا
مـن نـيـل ممـتـدح، ورمـح جـواد

ويشير إلى الحاجة الماسة التي تدفعه إلى طلب العون والمساعدة:

هـل يـشـتـكـي وجـعـاً بـه مـن سرة
بالـسِّـيْـنِ أم في صرة بـالـصـاد

وذكرى طاهر عنوان قصيدة من اثنين وخمسين بيتاً قالها يخاطب الوزير أبا محمد طاهر بن عامر يبدأ بنفحات مدحية مشيراً إلى جمال الممدوح المتمثل بالنور الذي انبلج من خلف القناع: (الكامل)

حدر القناع عن الصباح المسفر
ولوى القضيب على الكثيب الأعفر

ويشير إلى صورة حربية بين أجفان الممدوح وبين شعر المشيب الذي تلفع رأسه به:

سَلَّتْ عليَّ سيوفها أجفانه
فلقيتهن، من المشيب، بمغفر[1]

ويذكّر الممدوح بالعلاقة الحميمة بينهما داعياً إياه بألا ينساها:

بيني وبينك ذمة مرعية
فإذا تنوسيت المودة، فاذكر

وهذه العلاقة سببت ارتفاعاً وتألقاً حاكى عطارد والمشتري معاً:

ناجيت منه عطارداً، ولربّما
قبلته، فلثمت وجه المشتري

وإذا تقابلا فكأن لقاءً بين غصن ينحني فوق نهر صغير:

يثني معاطفه، وأذرف دمعتي
فإخاله غصناً بشاطىء جعفر[2]

---

(١) المغفر: قبة من حلق توضع على الرأس.
(٢) الجعفر: النهر الصغير.

ومياه النهر أشبه بماء الورد يتلألأ فوق حصى من الجوهر البراق:

تهمي بماء الورد، في أردانه
وبلاً، وتحصب سمعه بالجوهر

وأفزع إلى قاضي القضاة عنوان قصيدة كتب بها إلى الفقيه عبد الله بن محمد بن أحمد بن حمدين، ويخاطبه بدعوته الواضحة والصريحة لأن يلقي غطاء واسعاً يخفي خلفه طلعة النهار المشمس من غير أن ينسى جنح الليل الذي شبهه بالذؤابة الفتية (الكامل).

جرّر ملاءة كل يوم شَامِسٍ
واسحب ذؤابة كل ليل دامس

ويدعوه إلى الحضور اللافت في كل أرض ليزيل الظلام العابس من عيون البشر:

واطلع بكل فلاة أرض غرة
غراء في وجه الظلام العابس

وإذا طلع وجال فإنه ما يلبث أن يجد انساناً يقريه أشبه بليث هصور أو ظبي كانس:

وانزل بها ضيفاً لليث خادر
يقريك، أو جاراً لظبي كانس(١)

---

(١) الكانس: اللاجىء إلى كناسة بيته في الشجر.

والدعوة هذه لكل إنسان وكل عابر سبيل خصوصاً في الصحراء الواسعة التي تخبىء في طياتها ظمأ وجوعاً. والرجل الوحيد الذي يروي الظمأ ويشبع الجوعان هو قاضي القضاة الذي ترهبه النفوس وتهواه الأعين وتألفه القلوب:

وإذا طعمت فمن قنيص فلذة
وإذا شربت فمن غمام راجس
فافزع إلى قاضي الجماعة رهبة
تضع العنان بخير راحة سائس

ويسمي القاضي بعائلته ونسبه بعد أن يضفي عليه صفات الشجاعة والمروءة إذ قلما تجد كتيبة جيش إلا وتصدرها رجل من آل حمدين:

من آل حمدين الألى حليت بهم
قدماً، صدور كتائب ومدارس

وآل حمدين موجودون في كل مكان حتى انهم بدور يضيئون الظلمة الداجية:

من أسرة نشأوا غمائم أزمة
ولربما طلعوا بدور حنادس[1]

وإلى الأمير أبي إسحاق قال وكتب قصيدة من تسعة

---

(١) الحنادس: واحدها حندس الظلام.

وخمسين بيتاً بعنوان الجود الطامي يتوجع فيها على أيام الشباب ويندب عهده السالف الذي حمل معه كل ذكرى طيبة: (طويل).

سجعت وقد غنّى الحمام فرجّعا
وما كنت، لولا أن يغني، لأسجعا
وأندب عهداً بالمشقر سالفاً
وظل غمام للصبا قد تقشعا[1]

وإذا بكى فإنه لا يدري على ما يبكي، أيبكي على عهد الشباب الذابل أم يبكي مكاناً كان يألفه ويقضي معظم وقته في أرجائه:

ولم أدر ما نبكي: أرسم شبيبة
عفا، أم مصيفاً، من سليمى، ومربعا

وإذا لم يعد يألف هذا المكان فإنه مجبر على ذلك إذ سلخته عنه الأيام سلخاً وحالت بينهما على مدى العمر:

تحوّلت عنه لا اختياراً وربّما
وجعت، على طول التلدد، أخدعا[2]

ويذكر أماكن أخرى له في كل منها أثر وموطىء قدم:

(١) المشفر: موضع.
(٢) التلدد: التلفت يميناً وشمالاً. الأخدع: شعبة من الوريد وهو عرق في العنق.

ومن لي بـرد الـريـح من أبـرق الحمى
وريّـا الخـزامى مـن أجـارع لـعـلعـا[1]

ولابن عائشة كتب قصيدة بعنوان لو يباع الورد يستهلها بوصف الطبيعة الراعدة حيناً، والممطرة أحياناً، وبوصفه هذا لا يخفي الصنعة الجمالية إذ يحاول أن يشخص الأشياء فيعطي الغمامة صفة الرداء المصنوع من الرياح التي تخيطه أياد حاذقة: (الكامل).

مـن لـيـلة لـلرعـد فـيـهـا صرخـة
لا تـسـتـطاب، ولـلـحـيـا إيـقـاعُ
خـلـعـت عـليّ بهـا رداء غـمـامـة
ريـح تهـلهـله، هـنـاك، صـنـاع[2]

ويتابع وصفه إذ هو صاحب وجه مضيء ما يلبث أن يزيح ظلمة الليل كالبدر تماماً:

والـصـبـح قـد صـدع الـظلام، كـأنـه
وجـه وضيء، شـفّ عـنـه قـنـاع

والشاعر يحاول أن يظفر بحب ابن عائشة وبأي ثمن حتى ولو كان الوداد يبتاع لآبتاعـه وحصل عليه:

---

(١) الأبرق: أرض غليظة فيها حجارة ورمل وطين. الأجارع: واحدها أجرع وهي رملة مستوية لا تنبت شيئاً. ولعلع: جبل.

(٢) الصناع: الحاذقة في الصنعة، الماهرة في عمل اليدين.

قد كنت أغلي في ابتياع وداده
لو أن أعلاق الوداد تباع

وقال يخاطب أبا بكر بن الحاج في قصيدة بعنوان لذكرك وباسمك إذ بهما يغني الحمام المطوّق ويصفق الخليج: (طويل)

لذكرك ما عبّ الخليج يصفق
وباسمك ما غنّى الحمام المطوّق

ومن أجله اهتزت قضبان الأرائك حيث أشرقت الربى بالنوار المتفتق:

ومن أجلك اهتز القضيب على النقا
وأشرق نوار الربى يتفتق

ويصفه بالهادىء الناعم الذي يجاري العسل بنقائه وصفائه:

وما ذاك إلا أن خلقك رائق
يهزّ كما هزّ الرحيق المعتّق

ولس فيه أي شائبة تشينه أو خليقة سوء:

حسنت غناء واجْتِلاءً وخبرة
فكلك موموق الحلى متعشق[1]

ويسمو بالممدوح ليجعله لامعاً، سيفاً، طلقاً، فصيح اللسان وبليغه:

---

(١) موموق: محبوب.

وأنـت لـبـاب الـسـيـف، أمـا فـرنـده
فـطلق، وأمـا غـربـه فـمـذلّـق[1]

وإذا مُنح الامارة فإنه يزينها ويضفي عليها من كل حسن ومليح:

فـهـل عـلـمـت تـلـك الإمـارة انها
يـفـاض عـلـيـهـا مـن روائـك، رونـق

وعهدك زهرة، عنوان قصيدة من عشرة أبيات كتب بها إلى الفقيه أبي بكر بن مفوز ليجعله أفقاً واسعاً لا تخبو ناره ولا يجف ماؤه وهذا ليل جوده وكرمه:

أورى بـأفـقـك بـارق يـتـألـق
وسـقـى ديـارك وابـل يـتـدفـق

من أجل ذلك فتحياته مرسلة إليه مليئة بالطيب:

وتحـمّـلا عـنـي إلـيـك تحـيـة
تـنـدى عـلى نفس الـقـبـول، وتـعـبـق

وبقربه من الفقيه أبي بكر وقاه من ظلم الليالي التي تختبىء فيها غربان تنعق بالشؤم:

ووقـيـت فـيـك مـن الـلـيـالي إنها
غـربـان بـين بـالـتـفـرق تـنـعـق

(١) مذلّق: فصيح.

وإذا حصل البعد والنأي بينهما فإن ذلك مثار حزن وشقاء لا يعوّض عنه إلا الحمام الزاجل الذي ينقل التحيات في طيات الرسائل:

فـلقـد نـأى مـا بـيـننـا، فـمـغـرّب
مـسـتـوطـن ظـهـر الـنـوى، ومشرّق
ويَهـيْـجُـني نـفـس الـنـسـيـم إذا سرى
ويـشـوقـني فـيـك الحـمام الأورق[1]

وكتب إلى أبي عبد الله محمد بن عائشة يستدعيه للأنس فيما كانا ينظران فيه من طب صديق لهما تعذرت معالجته وطالت شكايته، والقصيدة من تسعة عشر بيتاً بعنوان: يا هزة الغصن:

فالشاعر يخاطب الطبيعة بما تحويه من أغصان وارفة تزركش الروض بجمالها فتسري فيه نسمات العطر لتضوع بها أرجاء الدنيا: (مجزوء الكامل مرفّل)

يـا هـزة الـغـصـن الـوريـق
وبـشـاشـة الـروض الأنـيـق

ومواجهة حسنة بين الرياض والصديق الصدوق الذي يحمل البشرى أو السلام إليها بنفسه أو بواسطة ما:

(١) الأورق: الأبيض.

أأتــتــكـما   بُشْرَى   بــســقــيــا
أم   ســلام   مــن   صــديــق

إزاء ذلك تنفرج أسارير الوجه تعبيراً عن الأمل في اللقاء بعد طول فراق:

فــهــززت   مــن   عــطــف   نــدٍ
وســفــرت   عــن   وجــه   طــلــيــق
ولــقــد   أقــول   إذا   سرى
بــين   الأقــاحــي   والــشــقــيــق

فالتحية من الصديق إلى صديق أشبه شيء بالعطر يتلقفه الواحد بلسماً من شفاه قرينه:

بــالله   يــا   نــفس   الــصّــبــا
حــيِّ   الــصــديــق   عــن   الــصّــديــق

والوزارة تغرّ، عنوان لأربعة أبيات جميلة قالها يداعب بعض اخوانه وهو يشير إلى الضعف المتمكن من شخصية من تغويه المراكز فينسى معها تاريخاً صيّره انساناً آخر، وإذا به يستسلم إلى المنصب ويجعله يتحكم بإرادته ويميل به عن أخ حميم ميلاً غير في الأخلاق والسجايا: (الكامل)

قــل لــلــمــقــيــم مــع الــنــفــوس عــلاقــة
يــا راكــبــاً ظــهــر الــمــطــيّ بــراقــا[1]

(١) براق: أراد بها وصف المطي بالسرعة.

لم صرت تَرْغَبُ عن سجايا حرّة
قد كنت مقتنياً لها أعلاقا

وبعد أن تقلّد المنصب نسي أخا الثقة وإذا مرّ به لا يقف حتى دقائق يستأنس ببقايا الأيام الماضية:

أتمرّ لا تلوي على مثوى أخي
ثقة وَلا تَقِف الركاب فواقا[1]

ويتساءل إذا الوزارة أو المنصب غير من عاداته أم أنه هو في الأصل مؤهل لهذا التغيير:

أترى الوزارة غيرّتك خليقة
إن الوزارة تنقل الأخلاقا

وإلى الأمير أبي بكر كتب ثلاثة أبيات بعنوان ابتسام وبكاء بحيث خصّ أبا بكر بصفة الابتسام والبشاشة وانتحى هو جانب البكاء والحزن ثم انه وصفه بالعادل في حين أنه هو الشاكي المتألم وهو من خلال ذلك يريد أن يظهر نفسه إنساناً مظلوماً قهرته الأيام في الوقت الذي ارتفع مقام سواه وتألق نجمه: (الطويل).

أوجهك بسام وطرفي شاكي
وعدلك موجود ومثلي باكي

وإذا كان الشاعر مظلوماً، مهضوم الحق. لا يقدر على

---

(١) فواقا: اراد بها الوقت القصير.

ردّ الظلم إذ يد الظالم أقوى وأقسى، فإن عدل أبي بكر صديقه، صاحب الهمة الرفيعة والمقام العالي، هذا العدل إذا تحرك لكفيل أن يحق ويرفع الحيف عنده ويسوي الأمور بعد أن يعيد كل شيء إلى نصابه، وهو بذلك يشبه ممدوحه بالريح القوية التي تهب على الأراك فتهزها لتتحرك فيها حتى الجذور كدليل على قوة خارقة يتمتع بها هذا الرجل تكسبه القدرة الكفيلة بإرجاع الحقوق المهضومة:

وتأبى اهتضامي، في جنابك همة
تهزّك هزّ الريح فرع أراك

ويستغيث الشاعر، ويطلب النجدة ليقف في وجه الظالم وقفة حادة وصارمة كما السيف يقطع كل معوج ويزيل كل سوء:

وقد نام مني ظالم لي ذاعر
فيا هبّة السيف الحسام دراك[1]

وكان عبد الله بن عثمان قد أرسل إليه شعراً فأجابه بعنوان ربوة الفضل يصف فيها الأبيات ويمدحها بحيث أنها حلة رائعة النظم، جميلة السبك، غنية الصور رفيعة المعاني، إذا سمعتها الآذان تتشنف، والأحاسيس ترهف، وهي صنف أدبي لا يمكن إلا أن تنحني أمامه الهامات، ويحسبها كل قارىء

---

(١) دارك: اسم فعل بمعنى الأمر ادركي: أي أدركي الظالم.

أو سامع غاية سامية يتمنى أن يصل إلى مستواها أو بالأحرى يأمل أن يكون ناظماً من مستواها: (البسيط)

وحــلة مــن طــراز الــنــظم رائــعــة
هــزّت بــآدابهــا أعــطاف آمــالي

ويشبه النظم ببردة طرزت وحيكت من أفضل الخيوط على أيدي أفضل الصناع وأمهرهم حتى أنها تبدو رائعة المنظر لا تخفي في طياتها أي غش:

مــن حــوك وشي بــبرد الــخَطّ تحــســبــه
في الــطرف مــشــتــمــلاً مــنــه بسربــال

والنتفة الشعرية أشبه بنطفة ماء باردة، تنساب من بحر غزير مشيراً إلى غنى الشاعر فكرياً وأدبياً:

فــحــبــذا نــطفــة. تــنــســاغ، بــاردة
من منهــل طــامــح الآذيّ، ســلســال[1]

ويجعلها زهرة نديّة يفوح عطرها وكأنها جزء من روضة غنية تختال بأشجارها وتتمايل أغصانها وينسكب عطرها بلسماً على الأنوف:

وزهــرة غــضــة، تــفــتر عــاطــرة
مــن روضــة لــدنــة الأنــفــاس مخــضــال

(١) الآذي: الموج.

والوصف هذا كناية عن تشابيه بليغة تملكت فيها لغة الألغاز، فالقارىء أو السامع يعيش مع القطعة بكل جوارحه، فهو مجبر على ربط الأفكار وتسلسلها لتتمثل الصورة واضحة بيّنة، وبذا يسمو الشعر إلى أعلى درجة لأن الموضوع مثير والصور تتتابع كثيفة فلا ثغرة تبدو في التفكير على الاطلاق.

وعندما وهت رجل الفقيه أبي أمية بعثرة ولحق به ما لحق من أذى سبب آلاماً حادة أقعدته الفراش وجعلته حبيس الجدران. كتب إليه ابن خفاجة بقصيدة من ثمانية وخمسين بيتاً بعنوان: بذات المكارم ذاك الألم، وهو يعيد الحادثة إلى القدر الذي اختار الوقعة وجعل العثرة من نصيب أبي أمية، ولعلّ ذلك ضرب من الامتحان يختبر به الباري عباده الصالحين (متقارب):

بذات المكارم ذاك الألم
وفي الله ما ناب تلك القدم

والعثرة ليست حدثاً طارئاً وإنما خطب جلل روّع حتى نجوم السماء ومن جرائها تضعضعت السماء وكأني بالمتعثر رجل لا كغيره من الرجال. وفي ذلك ضروب من المبالغة الحقيقية يسوقها الشاعر تعبيراً عن عمق العلاقة بينه وبين الرجل:

فروّع حتى نجوم العلاء
وضعضع حتى سماء الكرم

والمتعثر مصاب محروس، فالأذية لا تتعاظم، والشؤم يبعد عنه خصوصاً وأن السعد يرفرف فوق رأسه. وأن طالعه حسن تحميه الحياة حمايتها للأسد وأجمته:

وللسعد طرف به كالىء
يراعي الهِزَبْرَ، ويحمي الأجم(١)

وإذا اجترأ غاشم على ارتكاب أي خطأ فالممدوح همام يزيل هذا الغشم ويحذر المخطىء ويحاسب المفتري، لأنه همام لا يهاب لومة لائم يتصدى للأمور بكل ثقة قوامها وجه مبتسم وأنف شامخ إلى العلى:

همام، لعين الهدى ناظر
به، ولوجه العلى مبتسم

وبعنوان «يا أيها الطود» قال يخاطب أبا مدافع العربي مستشفعاً، واتفق أن ما طلبه منه تسنّى له، فلم يكتب به إليه، والقصيدة هذه تجعل من أبي مدافع جبلاً منيعاً لا تخترقه الجيوش ولا تهزه الزلازل، وهو أيضاً بطل همام تصفر في وجهه العظائم، وإذا صال وجال في الساح فإنه كمي ترهبه الأبطال وتأبى نزاله الفرسان، ورجل من هذا الصنف تهون عنده المطالب، فكل الحاجات مقضية وكل الآمال منالة، لذا فللشاعر حاجات عنده طلبها غير أن الليالي والأيام وقفت

(١) الكالىء: الحارس، الحافظ.

حائلاً دون تحقيقها، فالبقية عند أبي مدافع والهدف محقق بالطبع: (الكامل)

يا أيها الطود المنيع الأيهم
يا أيها البطل الكمي المعلم[1]
ها أن لي، عند الليالي، حاجة
بعدت منالاً، والليالي تلؤم

ويشير إلى مكانة أبي مدافع بكل وضوح إذ أن الحاجات مقضية عنده لأنه المفضال الأكرم تهون عنده المصاعب وتتقزم العقبات، لذا فالشاعر يطلب حاجته بوضوح ويؤكد على أنه سينالها لا محالة:

والفضل يأبى أن تفوت لبانة
وأبو مدافع الشفيع الأكرم
فامنن بها يد نعمة يزهو بها
من غرّة، هذا الزمان الأدهم

وإذا قضيت حاجاته فالشاعر يطلب السلامة للرجل بعد أن تنحني أمامه العوالي والهامات:

واسلم بمعترك الفوارس والظبى
تحني قراعاً، والعوالي تحطم

---

(١) الأيهم: الشامخ.

وكتب إلى مريم بنت إبراهيم يستشفع بها إلى الأمير أبي الطاهر بعنوان «خير ميمم» والقصيدة من ثلاثين بيتاً معتبراً التوجه إلى بيتها عملاً مقدساً وإذا حلّ في هذا البيت فإنه المجد والسؤدد والفأل الحسن: (الكامل)

يممت من علياك خير ميمم
وحللت من مغناك دار مخيّم

وحلوله في منزلها خلاص من قيد ثقيل أزاح عن كاهل هماً أثقل كاهله أشبه بتجريد السيف المسلط على عنقه. فالفتاة هنا مصدر عيش وحياة وسعادة للشاعر:

فَخَلَعْتُ عن عنقي حَمِيْلَةَ صارم
وأرحت نفسي من حمالة مغرم(١)

ويستطرد الشاعر في وصف المكان الذي يحلّ فيه حيث تقيم الفتاة ليعتبره من أخصب الأماكن انتاجاً وعطاءً وهو بذلك يشير إلى الكرم والجود وهما صفتان من خير الصفات التي يمكن للمرء أن يفخر بهما إذ لا يكسبانه إلا حب الآخرين، ومنزلها مصدر أمن وراحة واطمئنان، بها وحدها يقضي على الجفاء والوحشة ومنها يستمد الإلفة والمودة باعتبارها تتحصن في جبل شامخ لا يهتز:

(١) حميلة صارم: علاقة السيف. الحمالة: الدية، الغرامة.

ونــزلت من خصب بــأمــرع مــنــزل
وحــللت مــن أمــن بــرأس يــلــمــلــم[1]

والفتاه هذه من أسرة شجاعة يتسابق أهلوها إلى ساحة الوغى لا يهابون النزال ولا يخشون القتال فالموت في سبيل الشرف والكرامة رخيص والحياة في ذلّ دنيئة:

مــن أسرة يَـتَـلَـثَّـمُونَ إلى الــوغــى
يــوم الحــفــيــظة، بــالــعــجــاج الأقــتــم[2]

والفتاة أيضاً من بيت عزّ، ذووها أصحاب نجابة وفضل، نبلاء يخشون الله ويسعون إلى الخير سعياً. ولشدة كرمهم فهم أشبه بحاتم الطائي، وإذا تأهبوا إلى القتال فإنهم أشهر من ربيعة بن مكدّم[3]:

مــن بيــت عــزّ، مــن نــبــال، حيــث لا
تــلــقــى بــغــير مــســود ومــعــظّم
إن جــاد جــاد هــنــاك حــاتــم طــيء
أوصــال صــال ربــيــعــة بــن مــكــدّم

وذات يوم قال له الوزير أبو القاسم بن الرقيق: إن السلطان يريد أن تقول شعراً تفتحه بالغزل، فقال وذكر ما كان

(١) يلملم: جبل على مرحلتين من مكة، وأراد هنا الجبل مطلقاً.
(٢) يوم الحفيظة: يوم الدفاع عن المحارم والمنع لها.
(٣) ربيعة بن مكدّم: أحد فرسان الجاهلية المشهورين.

من أمر العسكر وكتب بها إليه سنة ١١٢٠/٥١٤ بعنوان، يا له من فارس نجد، والقصيدة من اثنين وستين بيتاً بدأها فعلاً بالغزل بعد أن يقف على الأطلال ذاكراً أيامه في منطقة تعرف بذي سليم وأخرى إضم حيث قضى الليل لا يعرف الكرى طريقاً إلى أجفانه متهماً حبيبته بأنها نامت من غير أن تسأل عنه، ومع ذلك فهو يعتبرها أشبه بالظبي الفتي ويقسم على ذلك بأبيه: (المديد)

قـل لمسرى الـريـح مـن إضـم
ولـيـالـيـنـا بـذي سـلـم[1]
طـال لـيـلي في هـوى قـمـر
نـام عـن لَـيـلي ولم أنـم
وأبي حـيّـاه مـن رَشَـإٍ
مـسـتـطاب الـلـثـم والـشـيـم

ويذكر أنه قبل كأساً من يد الحبيبة غير أن ذلك أشبه بوردة جميلة تضمها أصابع طرية وناعمة ومع ذلك فإن الحياة لا تحلو إلا باقتران جمال النفس بجمال الخلق والمظهر:

وقـبـلـت الـكـأس مـن يـده
فـاجـتـنـيـتُ الـورد مـن عـنـم[2]

---

(١) إضم وذو سلم: موضعان.

(٢) العنم: شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب، الواحدة عنمة.

وبـيــاض الـعـيش مـقــترن
بـســواد الـعـذر والـلـمـم

ويعود بعدها إلى ذكر خصال الفارس الصابر في الله، الواثق به والمعتصم الذي يجمع بين الضرب والصد حيث لا يكل ولا يملّ والنصر حليفه باستمرار:

صـابـر في الله محـتـسـب
واثـق بـالله مـعـتـصـم
يجـمـع الضرب الـتـؤام، بهـا
بـين فـلّ الـروم والـرمـم

وبعنوان «أبا جعفر» قال ابن خفاجة يراجع الوزير أبا جعفر بن سعد عن شعره مشيراً إلى أن الشعر أشبه بنفحات طيب تنسمها بعد أن ترشف الريق أو ما بقي في الكأس: (الطويـل)

أنـفـحـة طيب مـا تـنـسـمـت أم نـظـم
وفـضـلةُ كـأس مـا تـرشـفـت أم ظـلـم

وعندما سمع أو قرأ هذا الشعر فالقشعريرة سرت وكأني به سقم أصابه دوار وهزّه البرد:

خـطير مـن الـشـعـر اشتـمـلت بـبرده
وقـد بـزّ جسمي، بـردة الصحـة، السقم

ولروعة الشعر فإن الورق يشف عن نوره وكأنه النيازك

تلمع في ظلمة الليل وكأنه قنابل تتفجر مع لفظ كل كلمة، ونجوم تسطع مع نهاية كل قافية:

يكاد يشف الطرس عن نور حسنه
وما فض، في ثوب الديباجي له ختم
تفجّر فيه الطبع فجراً، وإنما
أطلّ به من كل قافية نجمُ

وقال وقد استطعمه القاضي أبو إسحاق بن ميمون فراخ حمام وعنبا، وكان بينهما مداعبات، والقصيدة من ثلاثة عشر بيتاً، بعنوان: بنات الحمام وأم المدام من البحر المتقارب يخلص إلى دعوة القاضي إلى مجلس أنس ما يلبث أن يتحول إلى مجلس أدبي.

وبعنوان «أبرك أم ماء» قال وكتب إلى أبي بكر محمد البطليوسي عن شعر وردٌ عليه في العروض والروي من البحر الطويل يصف منه الشعر بالممتاز وكأني به حب ياقوت ومرجان صقل في عقد يتلألأ على جيد الغانية، ومنه تأخذ مدينة بابل صنعة السحر حتى ان بغداد تفخر بهذا الجمال خصوصاً عندما يلوي العنق ويظهر ما يظهر من جمال.

كلام، كما استشرفت جيد جداية
وفصل ياقوت، هناك، ومرْجان

وتـأخـذ عنـه صنعـة السحـر بـابـل

وتـلوي إلـيـه أخـدع الـصَّـبِّ بَـغْـدانُ

وكتب إلى أبي بكر يستنهضه في أمر عرض له بعنوان «أهزك» من البحر الطويل، وهكذا فإن علاقات ابن خفاجة المتنوعة، جعلت منه شاعر مطارحات واخوانيات إذ عبرّ عن مشاعر الصداقة بلفظ رقيق ونظم جيد، من غير أن ينفلت من قيود القافية والعروض فجاءت أشعاره موزونة غنية بالصور زاخرة بالمعاني.

خامساً: الغزل

لم يخصص ابن خفاجة للغزل باباً من أبواب شعره، فالأبيات الغزلية متناثرة في ثنايا قصائده الوصفية والرثائية والمدحية، ولعل ذلك الذي حدا ببعضهم لأن يصنفه من الغزالين، علماً أن الطبيعة كانت صاحبة الحظ الأوفر في شعر ابن خفاجة.

على أية حال فإن الغزل ماثل في شعر صاحبنا ولو أنه غير مستقل بباب خاص. فهو مدخل لقصيدة أو مقطوعة شعرية ينظمها في الطبيعة وصفاً، في صديق مداعبة أو في قاضٍ أو أمير مدحاً.

وهذه مقطوعة بعنوان «خيرية تحدث النسيم» نظمها مستهلاً بغزل عفيف يبعد عن إباحة اللفظ وزخرف المعاني، فخيرية هي المنثور الأصفر الذي يتمايل مع كل هبة نسيم وكأنه يختال على ما حوله من النبات تعبيراً عن فرحته الناتجة عن الجمال الذي وهبه الله، وإذا كان الشاعر قد اقترب بوصفه من تجريد موصوفه وجعله كائناً يحس ويشعر فإنه يتخطى هذا الحد

إلى درجة جعله ينطق حيث ينشأ بينه وبين النسيم حديث السمر تحت جنح الليل: (الطويل)

وخيرية بين النسيم وبينها
حديث، إذا جنّ الظلام، يطيب

وأنفاس المنثور الأصفر تسري مع الليل فيعبق منها المكان، وتعطر بها الأرجاء كل ذلك على مهل وبخفة منعشة تدفع على الشك والريبة بأن له من الأسرار الكامنة ما يريب الناظرين:

لها نفس يسري مع الليل عاطر
كأن له سراً، هناك، يريب

ودبيب خيرية في الليل أشبه بولهٍ عاشق يتسلل بين الآكام، قاطعاً الفيافي يخبط خبط عشواء ليتوارى عن الأنظار كي يصل على الموعد إلى من تنتظره متخفية خلف ستار الليل ألا وهي الحبيب أو العاشق:

يدب مع الإمساء، حتى كأنما
له، خلف أستار الظلام، حبيب

والليل وحده ميدان اللقاء، فيه يقترب الحبيب من حبيبته، ينال منها ما يبغي وإذا انقشعت الظلمة وجرر الليل أذياله بعد أن يدهمه نور الفجر يلملم الحبيب أبعاضه وتعود

خيرية إلى مكانها خوفاً من الرقباء الذين ينشرون عيونهم في كل مكان.

ويخفى مع الإصباح، حتى كأنما
يظلُّ عليه. للصباح، رقيب

وهذه قصيدة من تسعة أبيات عنوانها «غزل وأنس» يصف فيها الشاعر العنق الطويل المحلّى بالمصوغات يتخذ هذا العنق زينة تتباهى بها الحسناوات وإذا ذكر في خلل القصائد فإنه الغزل بعينه لأن الرقة والنعومة والجمال تختلط بلفظه فتسمو صورته: (الطويل)

وأغيد، في صدر النّدِيِّ لحسنه
حلي، وفي صدر القصيد نَسيبُ

ويشير الشاعر إلى دقة الخصر وجمال القدّ، متفنناً في وصفه جامعاً بين الخصوبة والقحل كدليل على أن الموصوفة لا تنجب لأن ردفها سمين لكن خصرها ضامر:

من الهيف، أما ردفه فمنعّم
خصيب، وأما خصره فجديب

والنور يكاد يبزغ عن الوجه لحسنه وبياضه، أما القامة فمنصبة كالقضيب الأملس لا يعيبها طول ولا قصر ولا اعوجاج:

يـرفّ بـروض الحسن، مـن نـور وجهـه
وقـامـتـه، نـوارة وقـضـيـب

بعد هذا الوصف الغزلي يعود إلى الخمرة ليصفها بالعجوز دليل على أنها قديمة ومعتقة والتعتيق صفة سامية للخمرة وكي يؤكد على أنها معتقة قديمة أشار إلى البياض الناجم عن اختلاطها بالماء، ووصفه بالمشيب الذي يعتمر رأس الشيوخ في الكبر:

جـلاهـا، وقـد غـنّى الحـمام، عـشـيـة
عَـجُـوزاً عليـهـا، للحـبـاب مشيب[1]

ويصوّر وجنتي فتاة بعد أن يجعلها وردتـين تعلوهما الحمرة موشاة بالبياض الناصع فيختلط لونها فيميلان إلى الذهب يلمع تحت أشعة الشمس ليجعلها فرعاً من تلك الشجرة التي يتخذ منها المسواك لتطييب الأفواه: (الكامـل)

فـتـق الـشـبـاب، بـوجـنـتـيـهـا وردة
في فـرع إسـحـلة تمـيـد شـبـابـا[2]

وتسمو الصورة عند الشاعر عندما يصف العنق بصفحته الناصعة كأنه سوسانة يخجل منها نور الشمس وإذا ضربها فإنها تتورد حتى تحاكي العناب حمرة:

---

(١) جلاها: أي جلا الخمرة، أظهرها. عجوزاً: معتقة. علتها فقاقيع بيضاء، وكنى بالمشيب عن البياض، وبالعجوز عن الخمرة المعتقة.

(٢) إسحلة: واحدها اسحل: شجر تتخذ منه المساويك.

وضحت سوالف جيدها سوسانة
وتوردت أطرافها عنابا[1]

ويذكر منادمته للفتاة بعد أن أخذت الخمرة منه كل مأخذ:

نادمتها ليلاً وقد طلعت به
شمساً، وقد رقّ الشراب سرابا

وهو هنا يشير إلى جمالها الساحر وكأنها شمس تطلع فتزيح الظلام وتطرده، كل ذلك على نغمة الكأس وترنيمة الخمرة.

وإشارة إلى الانسجام الناجم عن اللقاء بينه وبين الفتاة يذكر الشاعر ما قامت به الغانية من غناء فأطربت سمعه وتاقت عيناه لرؤية الوجه الذي يخفيه حجاب سميك. وأزاحه فإذا القمر بين جنحي غراب، وجهها ناصع يحيط به شعر أسود فاحم بلون الغراب:

وترنمت، حتى سمعت حمامة
حتى إذا حسرت، زجرت غرابا

وعلى الوتيرة نفسها يعزف الشاعر فيصف الجبين الوضاح ليجعله مدخلاً لقصيدة غزلية يسوق الصور الجمالية بأسلوب فني يجعلها تتواتر متسقة، تنساب على مهل فتحتشد عائمة على

---

(١) السوالف: واحدتها سالفة: صفحة العنق.

صفحة من ليان: (الكامل)

يـا ربّ وضـاح الجـبـين كـأنمـا
رسم الـعـذار، بـصـفـحتـيـه، كـتـاب

وإذا رأته العيون وتفرست به الألباب لا بد للعشق أن يطرق الأبواب ليفترس النفوس بجماله وحسن رؤياه:

تَـغـرى، بِـطَـلعَتِـهِ الـعـيـونُ مَـهَـابَـةً
وَتَـبِـيـتُ تَـعْـشَـقُ عَـقْـلَـهُ الألـبـابُ

والجبينُ أبيضُ كاللجين، مورّد كشفق السماء

خُـلِقَـتْ عـلـيـهِ مـن الـصُّـبـاحِ غِـلالَـةُ
تَـنَـدى، ومـن شَـفَـقِ الـسَّـمَـاءِ نِـقَـابُ

والجسم لين، طري العود يشتهي الظفر به كل من يراه، حتى ان الشاعر هنا يجعل من هذا الحسد نهراً أو بحراً يخوض عبابه السابح وإذا استطاع فإنه شق السماء ونال منها شهاباً:

ولـربّ غضّ الجـسـم مـدّ بـخـوضـه
شـبـحـاً، كـما شـق الـسـماء شـهـاب

ويصف قامته بالقضيب الدقيق، المستقيم، ويعبر عن جمال القبح هنا إذ قلّما نجد النحول من الصفات الحسنة. فالشاعر يجعل مبعث جمال مشيراً إلى استدارة الوجه واحمرار الخدود: (السريع)

مـرّ بـنـا، وهـو بـدر تـمّ
يـسـحـب مـن ذيـلـه سـحـابـا

بقامة، تنثني قضيباً
وغرّة، تلتظي شهابا

وبعنوان «أشقر يزاحم الليل» ينظم ستة أبيات يجعل فيها الأشقر كوكباً يزاحمه على صراع الليل: (المتقارب)

ألا زاحم الليل بي أشقر
تصوب، تحت الدّجى، كوكبا

والكوكب يزيد اشتعاله نوره الساطع فينير الظلمة ويزيل بهمة الليل:

فكاد، وقد طار بي شعلة
على فحمة الليل أن تلهبا

والصراع بينه وبين الحبيب أشبه بمطاردة بين كوكبين لكل منهما خصائصه الجمالية يحاول من خلالها أن يتفوق على ندّه ويتغلب عليه بعد أن يأسره وينال منه:

وبات يطارده بارق
أحال غراب الدّجى أشهبا

والتقاء الكوكبين يؤدي إلى احتكاك يؤكد إضاءات مشعة تنعكس على الطبيعة، فالماء يتفضض ويتذهب، والأعشاب تتزركش بعد أن ينمقها النور فتوشيها الحبيبات الذهبية:

فذهّب، ليل السرى، عارض
يفضّض بالماء ما ذهبا

فأعشب ما جاد من تلعة
وطرّز بالنور ما أعشبا

و«خال في صحن خد» عنوان أبيات تبوح بكل جوىً وعشق، فمجرد التقاء سواد الخال مع بياض الخد يعني أن الصراع نشأ واحتدم وهذا في لغته أسمى درجات الحب: (الوافر)

رأيت بخاله، في صحن خده
فؤاد محبة في نار صدّه

والوهلة الأولى كانت خوفاً منه ورجفة، أيقدر على محبوبه فيأسره ويفوز به أم أنه يفشل فيقع في عقدة الذنب لكن المحبوبة لم تكن إلا كما يهوى الشاعر فاستجابت إليه وتعانق حبّه مع حبّها ومنحته الودّ الذي حلم به وطمح إليه:

فخفت، وقصر نفسي رسم فيه
فأعطانيه ميثاقاً بودّه

وتعلو البسمة ثغر الشاعر فيبتهج ويتهلل وجهه سروراً بعد أن اشتعل لبّه عشقاً وولهاً:

ومرّ يجدّ بي فيه هواه
وقد لعب الصّبا بقضيب قدّه

ويذكر حسناء في دارها، واصفاً قدّها بالقضيب وردفها بالكثيب، ويجعل من نهديها ثماراً تؤكل، والمحبوبة جميلة يخاف

عليها الشاعر من عيون المعجبين ويغار وتشتد الغيرة لتحمله على حبسها داخل قميص من الظلام مزرَّر، بعد ذلك ينقم على الأيام التي سرقت أيام الشباب، وغدا بحالة يعجز فيها عن جني ثمار ذلك الجمال فيبكي ويندب حظه: (الطويل)

يَـزُرُّ عـليهـا الـصبـح، نـوراً قـميصـه
وقـد لـبس الجـوّ الـظلام صـدارا
فـسـقـيـاً لأيـام، هـنـاك تـقـلّصـت
ذيـولاً عـلى حـكم الـشـبـاب قـصـاراً

ويقول بعنوان «شعر وثغر» يذكر عشقه وولعه بالحبيبة التي يسكر من ريق ثغرها بعد أن يسحره جماله فترتعد فرائصه ويتصبب العرق من جبينه خصوصاً عندما يتراءى له احمرار الوجنات: (الطويل)

تـعـلقـتـه نـشـوان مـن خمـر ريـقـه
لـه رشـفـهـا دوني، ولي دونـه الـسـكـر
تـرقـرق مـاء مـقـلتـاي ووجـهـه
ويـذكي، عـلى قلبي ووجنـتـه الجـمـر

وبعنوان «ريحانة معشوقة» يقول مصوراً القدّ الممشوق الذي يأخذ من عقله. فعينه تعشق وأنفه يتطيب برائحته، ولعابه يسيل، وأذنه تتشنف لسماع وقع القدم وكأنه موسيقى موقعة وأنغام متعالية: (المتقارب).

ومـعـشـوقـة الحـسـن ممـشـوقـة
يـهـيـم بهـا الـطـرف والمـعـطـس
لهـا نُـضْـرَةٌ سـمـتـهـا نـظـرة
وتـكـلـف، بـالأنـفـس، الأنـفـس

«ومعسول اللمى» عنوان لأبيات ثلاثة غزلية تناول فيها الشاعر الجسم ذي العنق الفارع الذي يتسنم صدراً عامراً تترنح فيه رمانتان دانية القطوف، وفوق العنق يتربع وجه كالبدر في صفحته صباحة نجلاء يشغلها ثغر كالهلال النائم في حضن الشمس تغلفه شفتان معسولتان فيحاكي العناب برداً تخفي في ظلاله، وفوق الشفاه ترف جفون تغطي لواحظ كعيون المها محمية بسيفين سودتهما أجنحة الغراب، وعلى جنبي القوسين تتدلى الحلي المعلقة بالأذان الطرية، ذلك الجمال وصفه الشاعر عن قرب بعد أن ذكر منادمته للحبيبة صاحبة العشق الفاتك: (الطويل).

وأغـيـد مـعـسـول الـلمـى والمـراشـف
صـقـيـل المـحـلّى، والحـلى والـسـوالـف[١]
فـنـادمـت حـلـو الـبر والـلفـظ والـلمـى
جمـيـل المـحـيـا والحـلى والـعـوارف

وليس للجمال عند الشاعر حدود وإن كانت له قيود،

---

(١) المراشف: واحدها مرشف: الثغر، والجمع للمبالغة.

فشدة القبح تتحول أحياناً إلى جمال فارق تبعث على الغزل والتشبيب، وها هو يقول في جارية سوداء ترتدي الثياب الفضفاضة وكأنها الليل يجرر أذياله: (مجزوء الرجز)

تجـرّدت عـن غـسـق
وابـتـسـمـت عـن فـلق
كـما تـوَلّتْ لـيـلة
تـسـحـب ذيـلَ الـغـسـق

ويقول في جميلين يتعانقان ولشدة الشبه بينهما فكأنهما ظبيان توأمان يصعب التميز بينهما: (متقارب).

جـمـيـل يمـيـل إلى مـثـلـه
فـيـشـفـع مـرآه في وصـلـه
ويـنـظر مـنـه إلى جـنـبـه
كـما نـظر الـظـبـي مـن ظـلّه

وقال فيمن كتبت اسمها تحت ختمها بعنوان «جوهرة» وهي تتكلم من أعلى رتبة وإذا كان اسمها جوهرة فالاسم على مسمى فإنها بالفعل جوهرة قائمة بذاتها: (البسيط)

قـالت، وقـد حـطت العنـوان جـوهـرة
عـن مـرتقى رتـبـة، قـد سـنّهـا الأول
لا غـرو إن صرت تحـت الختـم واقـعـة
إن الجـواهـر تحـت الختـم تحـتـمـل

وتسعة أبيات قالها بعنوان «عفيراء الصغيرة» يستهلها بوقفة طللية أرق لذكراها، خصوصاً ذكرى المنزل الذي كان يقيم فيه عندما كان يلتقي بالحبيبة ويبادلها الخمرة شرباً وشماً: (الطويل)

أرقت لذكرى منزل، شطّ، نازح
كلفت بأنفاس الشمال له شما

ويخاطب الليل الذي يصدعه البرق فيكسر أمواجه ويطلب منه أن ينقل تحياته إلى الربيع والرسوم الدارسة:

فقلت لبرق، يصدع الليل، لامح:
ألا حيّ عنّي ذلك الربع والرّسما

ويتمنى عليه أن يبلغ الحبيبة بأن بعدها عنه لا يزيده إلا حباً، والنأي القاسي يساعد على توهج العاطفة الكامنة في جوارحه:

وأبلغ قطين الدار أني أحبّه
على النأي، حُبّاً لو جزاني به جما

والحبيبة اسمها عفيراء وهي أمة صغيرة يتمنى أن تنمو وتكبر كي تصبح مؤهلة للحب الذي طالما انتظره:

واقرىء عفيراء السلام وقل لها:
ألا هل أرى ذاك السها قمراً تمّا

وهذه قصيدة من خمسة وثلاثين بيتاً نظمها الشاعر في

الوصف والغزل والفخر مشيراً إلى طيف الذي بادله السلام والتحية بعد أن غمره الوجد وأحاطه بثوب كالخيمة من غير نوافذ: (الطويل)

أما وخيال قد أطاف وسلّما
لقد هاجني وجد أناخ، وخيّما

وهذا الخيال بمثابة ذكرى تعيده إلى عهد مضاه في موضع يدعى اللوى فضلاً عن ذلك العهد بين الجبل ومنطقة الحمى:

وأذكرني عهداً تقادم باللوى
وعصراً خلا بين الكثيب إلى الحمى

وعلى البعد وطول الفراق، تنهمر دموع الصبر، هذه الدموع التي انحبست غير مرة:

وحطّ قناع الصبّر، والليل عاكف
فأفصح دمع كان بالأمس أعجما

ويرجع إلى نفسه ويصف حاله كيف بات وسرى ليلاً لا يهتدي إلى الحبيب الذي ينجد فما يكون منه إلا أن يتهم:

وبت، وسرّي راكب ظهر مدمع
طليق، إذا ما أنجد الركب أتهما[1]

---

(١) في هذا البيت طباق، يقول: إن دمعه يبوح بسره، فإذا سافر ركب الأحبة إلى نجد، والنجد المرتفع، نزل إلى تهامة، وأراد نزول الدمع مطلقاً.

يتلوع ويبكي على مرّ الأيام بعد أن يحاكي الظلام بعد أن يهيجه الحمام الساجع في دجى الليل:

أناجي ظلام الليل فيه بلوعة
تحدّث عنها الطير فجراً فَهَيْنَما
واسحب أذيال الدجى فَيَهيْجُني
حمام تداعى، سحرة، فتكلّما

ويصرّح بالغزل والتشبيب بالحبيبة، ويفصح عن أنه لثم اللمى وتلذذ بطيب ثغرها:

أغازل، من سيف تألق صفحة
وألثم، من نقع أزاحمه، لمى

ثم يجوب الآفاق ليلاً مصطحباً السيف ليكون جاهزاً للدفاع عن نفسه إذا ما اعترضه غدو وخصم، وهو يركب ظهر الليل مع أنه ليس لليل من ظهر يركب وبذا يستعير له صفة المطية:

وأسْرِي فأستصفي من السيف صاحباً
وأركب من ظهر الدُّجُنَّةِ، أدهما

ويسترسل في وصف لقائه مع الحبيبة، فهو نشوان لا يعرف الحزن باباً لقلبه، وكل ما في الكون أسير طموحه:

فبتنا، وبحر الليل ملتطم بنا
نرى العيس غرقى والكواكب عوّما

ومن تلك الكواكب التي تعوم والنياق في بحر الليل، انتثرت القسيُّ وفوّق المجد فوقه أسهما شاهمة:

وقد نثرت منها، قسيا يد السّرى
وفوّق منا، فوقها، المجد أسهما

ويقطع الفيافي متنقلاً من مكان إلى آخر، يقضي الليل المظلم من على جمل سمين ويقول أيضاً إنه ضامر، وبواسطة هذا الجمل يسحق الليل ويهدم بنيانه الذي يلف حياته بالأسى والشقاء:

سحبت الدجى منها بأعنس ضامر
رميت به ركن الدجى فتهدما

وينهي القصيدة برسم صورة سنية تنضح بالحسن والبهاء. ليظهر صورة الجمل الذي يغيّر وجه الطبيعة لسرعته في العدو الذي ينجم عنه غبار يتكاثف ويحجب الأنظار عن كل ما في الطبيعة:

جرى الحسن ماءً، فوقه، غير أنه
إذا ما جرى، نار الغضا متضرّما
عدا، فاستنار البرق لوناً وسرعة
وغبّر في وجه النهار فغيّما

وبعنوان «يا له من فارس نجد» قال قصيدة من اثنين وستين بيتاً افتتحها متغزلاً من البحر المديد يذكر فيها الأماكن

التي كان يلقى فيها حبيبته، ومنها ينتقل إلى قصيدة من ثلاثين بيتاً قالها بعنوان «غزل ورثاء» جاعلاً السلام لغة تتحدث بها الريح بعد أن يكون البرق قد أشعل نار الحب المضطرمة في داخله: (الطويل)

أفي ما تؤدي الريح عرف سلام
وبما يشب البرق نار غرام

والريح تتأرّج بعد أن يذكيها السحر تتحول إلى نسائم يتنشقها الشاعر مع حبيبته لعلها تطفىء النار المضطرمة في احشائه:

وإلا فماذا أرّج الريح سحرة
وأذكى، على الأحشاء، لفح ضرام

ويسكب كلامه وينمقه بعد أن يجعل الحب عقداً انتظمت حباته ليزداد حسناً وبهاء في عنق الفتاة:

أما وجمان من حديث علاقة
يهزّ إليه الشيخ عطف غلام

ويعود ليذكر الأيام التي قضاها بين الآثام، تلك الأيام السالفة التي تركت في قلبه كل أنواع الحب والأمل:

تحلّت به، ما بين سلمى ومربع
سوالف أيام، سلفن، كرام

ويصف إنساناً أسود بإنسان العين، وهذا أفضل تشبيه يعبر عنه المغرم الوله وهذا الأسود يسبح في غدير خلا من الحصى والحجارة: (السريع).

وأسود يسبح في لُجَّةٍ
لا تكتم الحصباء غدرانها
كأنها في شكلها مقلة
وذلك الأسود إنسانها

وهكذا فإن الغزل كثير في شعر ابن خفاجة وجميل بصوره ومعانيه التي تتخلل سطور الأبيات الوصفية والمدحية والرثائية، فدل لك على أن الشاعر غزال غير أنه يحظى بمكانة عالية عند رجال الحكم في أيامه، ولعلّ ذلك ما جعله يستبعد باب الغزل من أبواب شعره.

سادساً: متفرقات

وهي الأبيات والمقطوعات والقصائد المنظومة في غير موضوع وغير مناسبة. وتنوعها جعلها كثيرة وقليلة في آن، كثيرة من حيث موضوعاتها وقليلة من حيث عدد أبياتها:

فبعنوان «في ساحة البلى» قال الشاعر يتوجع ويندب أيام الشباب والاخوان، ويذرف الدمع كالغمام بعد أن تتحول اللوعة إلى زيت يصبّ على النار المشتعلة فتضطرم: (الطويل)

ألا عرّس الاخوان في ساحة البلى
وما رفعوا، غير القبور، قبابا[1]
فدمع كما سحّ الغمام، ولوعة
كما أضرمت ريح الشمال شهابا

وعندما يمر في الديار التي كانت مقراً لاجتماع الاخوان ولقاء الأحباب والأصحاب، يتلذذ فيها ويسر، وما يلبث أن يستولي عليه الحزن ويتملكه الشقاء، وهكذا يعيش بين هزات الألم ورقصات الأمل:

---

(١) عرّس: نزل ليلاً.

إذا استوقفتني في الديار عشية
تلذذت فيها جيئة وذهابا
أكر بطرفي في معاهد فتية
ثكلتهم بيض الوجوه شبابا

ويطيل الوقوف في الأطلال ويبكي الرسوم ويخاطب الدمن علّه يلقى جواباً يعيد إليه الأمل المنقطع، لكن لا حياة لمن ينادي:

فطال وقوفي بين وجد وزفرة
أنادي رسوماً، لا تحير جوابا

ويبدو له بعد طول انتظار أنهم درسوا ودرست ديارهم وامحت آثارهم حتى ان أجسادهم تحولت إلى تراب مع الزمن:

وقد درست أجسامهم وديارهم
فلم أر إلا أقبراً ويبابا[1]

ويستسلم في نهاية الأمر ليرضى بأن يرى المكان فقط حتى ولو أنه خالٍ من كل شيء بعد أن تحولت أشلاء الاصدقاء إلى تراب:

وحَسْبِيَ شَجْواً أن أرى الدار بلقعاً
خلاء، وأشلاء الصديق ترابا

---

(١) يباب: خراب.

ويقول عابثاً بصبي بعنوان «رمانة» تعبيراً عن مجونه وفسقه إذ عشق الشاعر الغلمان وتغزل بهم حتى انعكس ذلك على ثغره فكان يخاطب الفتاة في أكثر الأحيان خطابه للذكر، غير أنه يتخيل الصبي في صورة فتاة يشاطرها الحب ويبادلها الغرام بعد أن يعبث حالماً: (السريع)

صلني، لك الخير برمانة
لم تنتقل عن كرم العهد

إذا اشتهى العنب يمتصه ويعبّ منه عصيراً يتحول إلى خمرة يسكر منها ويترشف سائلها فيلجأ إلى الثدي وكأنه طفل يرضع من حليب أمه:

لا عنباً، أمتص عنقوده
ثدياً كأني، بعد في المهد

ويتخطى حدود الأدب عندما يجهر بفسقه ليوازن ما بين الخصية عند الصبي الذكر والثدي عند الفتاة:

وهل يرى، بينهما، نسبة
من عدل الخصية بالنهد

وقال سالكاً مسلك ابن الرومي (٢٨٣/٨٩٦) في ذم الورد بعنوان «ذات الخال» وفي هذا الذم يذم الفتاة أيضاً إذ يجعل الخال قريباً من الجعل الذي يكره الرائحة الطيبة: (الطويل)

ألا قـل، لـذات الخـال، عنّيَ، إنـني
لأرغـب عـن خـال تـطلع في خـدّ
وزهـدني، في ذلـك الخـال، نـسبـة
أراهـا بـخـال الخدّ من جـعـل الـورد

وعلى طريقة أبي العلاء المعري (٤٤٩/١٠٥٧) في لزوم ما لا يلزم قال بعنوان «طلت السماء» وبذا يخرج عن المألوف ليقترب من الزندقة والكفر، بعد أن يجعل من نفسه انساناً غير عادي تصغر أمامه كل الأمور حتى تلك المستحيلة: (الكامل)

أنّى تـطاولـني، ودوني بـسـطتـا
جـدّ يـسـاعـدني، وجـدّ يـسـعـد؟

ويشير إلى أنه حلّ في الأعالي حتى في المكان الذي تشرق منه الشمس:

هـا قـد حـللت، ولـلتـقـلقـل غـايـة
في حـيـث يشرق، ثـم يشرف مـقـعـد

وطال السماء، وهل لإنسان أن يقدر على ذلك من غير وسيلة:

طـلت الـسـماء، فـهـل سـمعت بـحيـلة
تـرقـى بهـا نـحـو الـسـماء وتـصـعـد

ويستصغر الآخرين ليعتبرهم من المخلوقات الحقيرة لا يمكن أن يساوي نفسه بهم لأنه من فصيلة مختلفة تماماً:

إلــزم ثــراك، وغضّ طــرفــك ذلّــة
فــمــكــانــتي أنــأى عــلــيــك، وأبــعــد

ويفخــر بنفسه، إذ الــويــل كــل الــويــل إذا غضب واستشاط:

ولئــن طــربــت، وقــد عــرتــني وعــكــة
فــالــلــيــث يــبرد، والمــهــنــد يــرعــد

وفي الموضوع نفسه يقول بعنوان «أي عيش» يحدّد فيها سنوات عمره البالغة إحدى وثمانين سنة: (الرمل)

أي عــيــش أو غــذاء أو ســنــه
لابــن إحــدى وثــمانــين ســنــه

ويعتبر الشيب قد أذاب عمره وقطع حبل صباه:

قــلّص الــشــيــب بــه ظــل امــرىء
طــالمــا جــرّ صــبــاه رســنــه

ويعترف بأن حياته مزيج من السيئات والحسنات:

تــارة تَــشْــطُو بِــهِ ســيــئــة
تــســخــن الــعــين، وأخــرى حــســنــه

وبعنوان «سدد مرامي الطفل» قال يحث على تنبيه أفهام الأطفال، باعتماد أسلوب التثقيف بكلمات وألفاظ تقوي من شأنهم وتشد من أزرهم:

سدِّد مرامي الطفل في شأنه
بلفظة تشدد بها أزره

وإذا حاولت إفهام الأطفال فلا تلجأ إلى الحشو، واعتمد أسلوب الافصاح دائماً عن المثل بما يتناسب وإمكانياتهم العقلية خصوصاً وأن المبادىء والقصائد نادرة في ذلك العصر:

واكتف باللمحة من فهمه
إن المبادي أبداً، نزره

وإذا كانت المحاولة فالإقلال من المعلومات قد يؤدي إلى التكثيف فيما بعد لأن كل شيء لا يمكن أن يبدأ إلا بالنزر اليسير، وبذا يؤكد الشاعر أن أية نار ومهما عظمت فإنها تبدأ بشعلة من عود ثقاب، وأية دوحة تبدأ ببزرة صغيرة:

أما ترى النيران من شعلة
والدوحة اللفاء من بزره

وكان ابن خفاجة شارباً للخمرة، يعاقرها مع زمرة من أنداده، لكنه ما لبث ن تاب واقلع عن تعاطيها، وصادف أن دخل يوماً على هؤلاء القوم وهم يشربون وعاد إلى سابق عهده بالحنين إليها لأنها سبب المسرة والسلوة: (الكامل)

يا حبذا نادي الندام، ومُجْتَلَى
سرّ السرور بِهِ، ومسلى الأنفس

وإن كان قد كفّ عن شرب الخمرة فإن الحنين إليها يبقى دائماً عامل تذكار يدفعه إلى ارتياد ذلك المكان الذي عاش فيه ردحاً طويلاً من حياته:

ولئن كففت عن المدام فإن لي
نفساً تهش بصدر ذاك المجلس

وفي النهاية يعترف بأن المشيب وحده الذي يحول بينه وبين الخمرة مجدداً ولولا هذه السنين الطوال لعاد وعبّ من الدنان ما لذّ له وطاب:

لولا الحياء من المشيب لقبلت
ثغر الحباب به، وعين النرجس

وبعنوان لغز قال أبياتاً أشبه بلغز يطلب حلّه والافصاح عنه إذ يخاطب من يركض طلباً للسيادة حتى ان الرياح عجزت عن اللحاق به: (الكامل)

يا راكضاً في شوط كل سيادة
أعيا ترسلّه الرياح لحاقاً

والراكض هذا بكون دائماً متيقظاً، ألفاظه سلسلة واضحة، وإذا حاول أن يفهم ما يدور حوله فإنه يحرقه احراقاً وكأني به يريد التمعن بالأشياء وبدقائقها:

متيقظاً تندى حواشي لفظه
سلساً، ويلفح فهمه إحراقا

ويقضي حياته في العذاب والشقاء، يكدّ ليل نهار، وإذا لم يحصل على ما يريد يحنق على الأيام بعد أن يشفق على نفسه:

متعذّب ما زال يضرب يومه
كدّاً، ويحنق ليله إشفاقا

ومرض ابن خفاجة، وظن أن الموت ملاقيه، واعتلّ وكبرت علته فقال بعنوان «سابح في بحر الشكاة» يعترف في هذه الأبيات بجهله الذي أبعده عن كل عالم وخبير، والجهل أعمى بصيرته حتى لم يعد قادراً على استيعاب أي حقيقة يدلّه إليها أي دليل: (طويل)

جهلت، وما ألقى عليما، وإنما
مرهت، وأعيا أن أمرّ بكاحل[1]

وحاول طالباً الهداية لكن الأمل ضاع وغرب بعد أن استحال تغيير حاله وتبديلها:

فسرت، وقد أجدبت، أرتاد مرتعاً
فلم تطإ الوجناء بي ظهر ما حل

وأصبح يتخيّل بأنه مقيم بالقرب من أصحابه وأصدقائه، مع أنه بعيد عنهم كل البعد لأن أفكاره غير أفكارهم ومعتقده يناقض معتقداتهم:

---

(١) مرهت: رمدت عيني لترك الكحل.

وخيّل لي أني أقيم، وإنما
أسير، وإن لم احتقب زاد راحل

ويستسلم أخيراً بعد أن يترك الأمور للصدف:

وأسبح في بحر الشكاة، لعلني
سأعلق يوماً، من نجاة بساحل

وقال وقد استرجعت بلنسية من يد العدو بعنوان «غمام النصر» وفي القصيدة اشارات إيمانية يصرح بها ابن خفاجة مع أنه كان جاحداً لا يأبه بالأديان: (البسيط)

الآن سحّ غمام النصر فانهملا
وقام صَغْوُ عمود الدين فاعتدلا

وعودة بلنسية تشكل مبعث سعد وسرور للشاعر:

ولاحَ للسَّعْدِ نجم قد خوى، فهوى
وكرّ للنصر عصر قد مضى، فخلا

وقال يحمل على خدمة السلطان بعنوان «حسب الفتى» داعياً إلى التخلص من العبودية، والقهر، ويحث الناس على الاستقلال: (البسيط)

حسب الفتى حلية أن يستقل به
ملك عزيز، فلا يَقْعُدْ به العطل

وبعنوان «أوحش شيء» قال يستجفي بعض من كان

يذهب إلى الوقار على العقار، والأبيات من البحر المضارع يدعو فيها إلى الطلاوة والمداعبة والابتعاد عن العادات القديمة. لأن أوحش شيء بالنسبة للشاعر تلك الخشونة المرفقة بشيء من الغباوة.

وهكذا فإن شعر ابن خفاجة ينم عن شخصيته فهو المرح والجاد، الكافر والمؤمن الضعيف والقوي، عن كل ذلك يعبر الشاعر بصدق مفصحاً عن حقيقة مشاعره ليتألق حيناً نظماً ومعنى، ويعلو بأفكاره في حين ينحط مرات أخرى إلى مستويات دنيا عندما يلجأ إلى غزله بالغلمان فتهتز الصورة وتأنفه الأنفس حتى يبدو وكأنه خارج على نظام الكون. ولعل هذا التفاوت في المسلك يدعونا إلى الإقرار بأن الشاعرمتأثر ببيئته إلى حد التعبير عن ذلك بالشعر المتضمن الكثير من عادات عصره.

سابعاً: نماذج من شعره

وصف متنزه

ومجرّ ذيل غمامة قد نمّقت
وشي الربيع به يد الأنواء
ألقيت أرحلنا، هناك، بقبة
مضروبة من سرحة غناء
وقسمت طرف العين بين رباوة
مخضرّة وقرارة زرقاء
وشربتها عذراء تحسب أنّها
معصورة من وجنتي عذراء
حمراء صافية، تطيب بنفسها
وغنائها وخلائق الندماء
خذها، كما طلعت عليك عرارة
مفترة عن لؤلؤ الأنداء

النار الشقراء

ومعين ماء البشر أبرق هشة
فكرعت من صفحاته في مشرب

متهلل يندى، حياء، وجهه
فتراه بين مفضض ومذهب
أضنى الحسان حسادة مفرنده
دمع ترقرق، فوقه لم يسكب
خيّمت منه بين طود باذخ
نال السّماك، وبين واد معشب
تهفو به نار القرى، فكأنها
مهما عشا ضيف، لسان المعرب
حمراء، نازعت الرياح رداءها
وهناً، وزاحمت السماء بمنكب
ضربت سماء من دخان فوقها
لم يُدر فيها شعلة من كوكب
وتنفّست عن كل نفحة جمرة
باتت لها ريح الجنوب بمرقب
قد ألهبت، فتذهبت، فكأنها
لسكون شرّ شرارها، لم تلهب
تذكو وراء رمادها، فكأنها
شقراء تمرح في عجاج أشهب
والليل قد ولّى يقلّص برده
كدّاً، ويسحب ذيله في المغرب

وكأنما نجم الثريا، سحرة
كفٌ تمسّح عن معاطف أشهب

العذار حداد

وافى لنا، وله صحيفة صفحة
جعل العذار بها يسيل مدادا
متجهماً ثكل الشباب، كأنما
نشر العذار على الشباب حدادا

مجلس أنس

ونديّ أنس هزني
هزّ الشراب من الشباب
والليل وضاح الجبين
قصير أذيال الثياب
فقنصت منه حمامة
بيضاء، تنسخ من غراب
والنّور مبتسِمٌ وَخَدّ
الوَرْدِ مخطوط النّقابِ
يندى بأخلاق الصحاب
هناك لا بندى السحاب
وكلاهما نشر كما
نثروا القوافي بالخطاب

فكأن كأس سلافة
ضحكت، إليهم، عن حباب

غزل وأنس

وأغيد، في صدر النديّ لحسنه
حليّ، وفي صدر القصيد نسيب
من الهيف، أما ردفه فمنعَّم
خصيب، وأما خصره فجديب
يرف بروض الحسن، من نور وجهه
وقامته، نوارة وقضيب
جلاها، وقد غنّى الحمام، عشية
عجوزاً عليها، للحباب، مشيب
وجاء بها حمراء، أما زجاجها
فماء، وأما ملؤها فلهيب
على لجّة ترتج، أما حبابها
فنور، وأما موجها فكثيب
تجافت بها عنّا الحوادث برهة
وقد ساعدتنا قهوة وحبيب
وغازلنا جفن، هناك، كنرجس
ومبتسم، للأقحوان، شنيب

فلله ذيل، للتصابي، سحبته
وعيش، بأطراف الشباب، رطيب

فرس أشقر

ومطهّم شرق الأديم، كأنما
ألفت معاطفه النجيع خضابا
طرب، إذا غنّى الحسام، ممزّق
ثوب العجاجة جيئة وذهابا
قدحت يد الهيجاء منه بارقاً
متلهباً، يزجي القتام سحابا
ورمى الحفاظ به شياطين العدى
فانقض في ليل الغبار شهابا
بسام ثغر الحلي، تحسب أنّه
كماس، أثار بها المزاج حبابا

حديث كالنسيم

وليل، تعاطينا المدام، وبيننا
حديث، كما هبّ النسيم على الورد
فعاوده، والكاس يعبق نفحة
وأطيب منه ما نعيد وما نبدي
ونقلي أقاح الثغر، أو سوسن الطّلى
ونرجسة الأجفان، أو وردة الخدّ

إلى أن سرت في جسمه الكاس والكرى
وما لا بعطفيه، فمال على عضدي
فأقبلت أستهدي، لما بين أضلعي
من الحرّ، ما بين الضلّوع من البرد
وعاينته قد سُلّ من وشي برده
فعاينت منه السيف سلّ من الغمد
ليان مجسّ، واستقامة قامة
وهزة أعطاف، ورونق إفرند
أغازل منه الغصن في مغرس النقا
وألثم وجه الشمس في مطلع السعد
فإن لم يكنها أو تكنه، فإنه
أخوها، كما قدّ الشّراك من الجلد
تسافر كلتا راحتيّ بجسمه
فطوراً إلى خصر، وطوراً إلى نهد
فتهبط، من كشحيه، كفيّ تهامة
وتصعد، من نهديه أخرى، إلى نجد

جارية من ريحان

أما واعتزاز السيف والضيف والندى
بخير مليك. هشّ في صدر مجلس

بدا بين كفّ للسماح مغيمة
تصوب، ووجه للطلاقة مشمس
لقد زف بنتاً، للخميلة، طلقة
يهزّ إليها الدست أعطاف مغرس
تنوب، عن الحسناء والدار، غربة
فما شئت من لهو بها وتأنس
تشير إليها كلُ راحة سوسن
وتشخص فيها كل مقلة نرجس
فحفّت بها ريح بليل وربوة
بمسرى غمام، جادها، متبجس
فجاءت تروق العين في ماء نضرة
تشنّ، على أعطافها، ثوب سندس
وتملأ عين الشمس لألاء بهجة
وحسن، وأنف الرّيح طيب تنفّس

وجه ومصباح

وأغرّ ضاحك وجهه مصباحه
فأنار ذا قمراً، وذلك فرقدا
ما إن خبا تلقاء نور جبينه
حتى ذكا بذكائه، فتوقدا

كل نسيم رسول شوق

يـا منيـة الـنفس حسبي من تـشكيـك
أني أصـاب، وكـفّ الـدهـر تـرمـيـك
ولـو تـسـامـح خـطب في فـدائـك بي
لـكـنـت، مهـما عـرا خـطب، أفـديـك
وكيـف أغـفـي بـليـل تـسـهـرين بـه
أو اسـتـسـيـغ شرابـاً لـيس يـرويـك
هنيـد أوجـعـت قـلبـا ق أقـمـت بـه
مـا بـال طـرفي، ومـا يـدريـك، يبكيـك
فـربّ لـؤلـؤ دمـع كـنـت أذخـره
عـلـقـاً أغـالي بـه، أرخـصـتـه فـيـك
وإن نـأى بـك ربـع غـير مـقـترب
أو احـتـواك حـجـاب فـيـه يـقـصيـك
فـإن كـل نـسـيـم، خـاضـه أرج
رسـول شـوق، أتى عـني يحـيـيـك
وربّمـا شـفـعـت لي غـفـوة نـسـخـت
أخـرى الـظلام، فـبـات الـطيف يـدنيـك

كفى حكمة لله

كـفـى حـكـمـة لله أنـك صـائـر
تـرابـاً، كـما سـوّاك قـبـل، فـعـدّلـك

وإن شئت مرأى كيف كوّن ثانياً
فدونك، فانظر كيف كوّن أوّلك
فهل أنت، في دار الفناء، ممهّد
محلّك، في دار البقاء، ومنزلك

ليل الحزن طويل

تيقن أن الله أكرم جيرة
فأزمع، عن دار الحياة، رحيلا
فإن اقفرت منه العيون، فإنه
تعوّض عنها، بالقلوب، بديلا
ولم أر أنساً قبله عاد وحشة
وبرداً على الأكباد عاد غليلاً
ومن تك أيام السرور قصيرة
به، كان ليل الحزن فيه طويلا

زيارة على غير موعد

لقد زار من أهوى على غير موعد
فعاينت بدر التمّ، ذاك التلاقيا
وعاتبته، والعتب يحلو حديثه
وقد بلغت روحي لديه التراقيا

فلما اجتمعنا قلت من فرحي به
من الشعر، بيتاً، والدموع سواقيا
وقد يجمع الله الشتيتين، بعدما
يظنّان كل الظن أن لا تلاقيا

الخاتمة

لا بد من نتائج تستخلص من أي بحث أو دراسة تعدّ. ومن هذه النتائج يطلّ الدارسون على أهمية المبحوث أو ضعته.

فابن خفاجة لم يكن شاعراً عادياً، إذ إن شعره يدل على المكانة التي كان يتمتع بها، فمدحه للوزراء والقضاة والفقهاء لا يقل عن رثائه لأهل هذا الصنف من البشر، ثم ان أغراضه الشعرية عديدة ومتنوعة إذ يكاد يكون طرق جميع الأبواب إن لم يكن تصريحاً فتلميحاً.

فالوصف مثلاً احتل القسم الأكبر من شعره وبخاصة ذلك المتعلق بالطبيعة التي دخل إلى أسرارها، ووصف جزئياتها حتى اعتبر شاعرها وسمّي بأسمائها.

وتبع الوصف مكانة عند ابن خفاجة المديح والرثاء والاخوانيات، من غير أن ينسى الهجاء الذي أشار إليه في أبيات من قصائده، وجاء لاذعاً مما حمل أهل النقد لأن يعتبروه هاجياً خبيثاً.

وفي الغزل كذلك، اعتبر الشاعر غزالاً مع أنه لم يجعل

باباً خاصاً بهذا الغرض، لكن قلّما وقعنا على قصيدة من قصائده تخلو من أبيات في الغزل.

وإذا كانت طبيعة الشعر تسبغ على الشاعر ثوب الشاعرية، فإن غزارته عند ابن خفاجة وتعدد أغراضه، جعلته شاعر شرق الأندلس، إن لم يكن شاعر الأندلس برمتها.

وهذه الصفة الغراء، لم تقف حائلاً دون التعرّض إليه، فإذا اعتبر شاعر شرق الأندلس، وجاء شعره منسجماً مع هذه الهوية، فإن ثمة من خالف هذا الرأي، وفي معرض نقده لشعره، عاب عليه ازدحام المعاني والصور البيانية والبديعية في أبياته، إذ لا تكافؤ بين المباني والمعاني في غير قصيدة وغير بيت.

ومن عاب ابن خفاجة، عاب قبله المتنبي وأبا العلاء المعري، باعتبارهما ينظمان الشعر نظماً من غير أن يسبكاه على الأساليب العربية المعهودة، وهم ينزلون شعرهما أي شعر المتنبي وأبي العلاء بذلك عن طبقة الشعراء العرب.

وصاحب هذا النقد، لا شك يعاني من قصر في نظره، خصوصاً وأنه تعرّض لشاعر لا يزال شعره حجّة الشعراء والنقّاد على مرّ العصور.

والإجحاف بحق المعري والمتنبّي، لحقّهما يفرض بغير شك اجحافاً بحق ابن خفاجة.

فابن خفاجة شاعر متفنن، حاذق، غني، وثري، عالم بخفايا الشعر وقوانينه، فعلى معظم البحور الشعرية نظم، ونوّع في استخدام القوافي، والروي عنده منسجم تماماً مع الموسيقى الداخلية لشعره، إلى جانب أنه أديب ومترسل من الطبقة الرفيعة.

إن هذه الدراسة الموجزة لابن خفاجة وشعره، لا يمكن أن تفيه حقّه، لأن أمثاله يحتاجون إلى غير دراسة وغير بحث. لذا فإن هذا البحث يمكن اعتباره اطلالة أولية على تراث شاعر شرق الأندلس، وأغراضه الشعرية نتهيأ دائماً لاستقبال المنقبين والباحثين ليعملوا فيها نقداً وشرحاً وتحليلاً.

مصادر البحث

ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح (٥٢٣/١١٣٧). **ديوان ابن خفاجة**. بيروت، دار صادر، لاط، ١٣٨١/١٩٦١.

- ابن خلدون، عبد الرحمن (٨٠٨/١٤٠٦). **تاريخ العلامة ابن خلدون**. بيروت، مك. المدرسة ودار الكتاب اللبناني، ط ٣، ١٣٨٧/١٩٦٧.

- ابن خلكان. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٨١/١٢٨٢). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحق. احسان عباس. بيروت. دار صادر، لاط، لات.

- ابن رشيق، أبو علي الحسن (٤٥٦/١٠٦٣). **العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده**. تحق. محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت، دار الجيل، ط ٥. ١٤٠١/١٩٨١.

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١/١٣١١) **لسان العرب**. بيروت، دار صادر، لاط، لات.

- أمين، أحمد (١٣٧٣/١٩٥٤). **ظهر الإسلام**. بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٥، ١٣٨٨/١٩٦٩.

- بالنثيا، آنخل جنثالث. **تاريخ الفكر الأندلسي**. تر. حسين مؤنس. القاهرة. مك النهضة المصرية، ط ١، ١٣٧٤/١٩٥٥.

- بروكلمان. كارل (١٣٧٥/١٩٥٦). **تاريخ الشعوب الإسلامية**. بيروت، دار العلم للملايين، ط ١ ١٣٦٨/١٩٤٨.

- داغر، يوسف أسعد. **مصادر الدراسة الأدبية**. بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية. لاط. ١٤٠٣/١٩٨٣. ج ١.

- الزركلي، خير الدين (١٣٩٦/١٩٧٦). **الأعلام**. بيروت، دار العلم للملايين. ط ٥، ١٤٠٠/١٩٨٠.

- زيدان، جرجي (١٣٣٢/١٩١٤). **تاريخ آداب اللغة العربية**. بيروت دار مكتبة الحياة، ط ٢ ١٣٩٩/١٩٧٨.

- الضبي، أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة (٥٩٩/١٢٠٢). **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**. مجريط، مط. روخس، لاط، ١٣٠٢/١٨٨٤.

- العبادي، أحمد مختار. **تاريخ المغرب والأندلس**. بيروت، دار النهضة العربية، لاط، ١٣٩٩/١٩٧٨.

- عباس، إحسان. **تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف**

والمرابطين. . بيروت، دار الثقافة، ط ٣، ١٣٩٤/١٩٧٤.

- المقري، أحمد بن محمد (١٠٤١/١٦٣١). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطب**. تحق. إحسان عباس. بيروت، دار صادر، لاط، ١٣٨٨/١٩٦٨.

- ياقوت الحموي (٦٢٦/١٢٢٩). **معجم البلدان**. بيروت، دار إحياء التراث العربي، لاط، لات.



فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**